الباب الثالث

فى الاجتماع

خطرات افكار

على صفحات البحار

فى اوائل شهر يونيو من هذا العام (١٩٠٠)، كنت متردداً بين أن أقضى اجازتي فى بلقاس، فاتمتع برؤية مزارعها النضرة، ورياضها الفيحاء، وبين أن اسافر الى أوربا فاشاهد جبالها السامقة، ومدنها الغَضَّة العامرة

وما زلت كذلك بين إقدام وإحجام، حتى رجحت كفة الميزان من جهة السفر لاسباب اربعة، وهى: دعوتى الى بعض المؤتمرات العلمية القانونية، وشهود المعرض الباريسى، والامتثال لاشارة الاطباء علىَّ بالسفر تبديلاً للهواء، وطلب الشفاء مما اعترى صحتى من الاعتلال، بعد ما عانيته من عناء الاعمال، واشتغال البال، ثم للسعي فى تخفيف ما المّ بفؤادى من الاحزان على أثر المصائب التى دهمتنى بفراق من أعزه، ولذلك عقدت العزم على مغادرة الاوطان

فما كان يوم ٢٢ يونيو ، الا وانا فى الاسكندرية على ظهر وابور السنيفال ، من سفن شركة الميساجرى ماريتيم ؛ وهذه المرة السادسة التى ارحل فيها الى اوربا

وقد لاقيت فى السفينة بعض الاصدقاء الكرام ، مثل حضرة احمد بك عفيفى [١] وحضرة عمر بك رشدى [٢] وانجالهما ، ففرحت بلقائهم ، وان كنت بعد قليل قد استشعرت انقباضاً غير عادى ، فردَدت سببه الى فراق الاهل والاحباب

وما اوفت الساعة على الرابعة حتى اقلعت السفينة وسارت باسم الله مجراها ، تشق عباب الماء ، ونحن شاخصون الى الاسكندرية ؛ وما بَرِحَتْ ابصارنا متعلقة بالشواطىء المصرية ، حتى غابت عن عيوننا ، ولم يلح لنا فى الافق الا خط دقيق اسود

وتَلَفَّتَتْ عَيْنِى فَمُذْ خَفِيَتْ عَنِّي الدِّيَارُ تَلَفَّتَ القَلْبُ

وكان وقت العشاء قد حان ، فنزلت الى غرفة المائدة لعلى أحجز منضدة لى واخوانى المصريين تجمع بيننا كلنا ، فعيَّنت لرئيس الخدم تلك المائدة التى اخترتها فى وسط الغرفة بعيداً عن الرفاص ، فأكد لى انها محجوزة باسمنا ؛ ولكن ما نزلنا بعدُ لتناول الطعام حتى وجدناه قد غيَّر وبدَّل ، وقادنا الى مائدة أخرى قريبة من موقع

---

(١) احمد باشا عفيفى (٢) المرحوم عمر باشا رشدى

الرقاص ، فساءنا ذلك ، وسرعان ما انتدبنى اخوانى لمقابلة قوميسير الباخرة ، وهو الضابط المكلف بالنظر فيما يخص الركاب ، فلما أفضيت اليه بجلية الامر ، طيَّب خاطرى ، ودعا برئيس الخدم فعنفه تعنيفاً شديداً رغماً عما كان يبادره به من المعاذير الكاذبة ، وسؤاله العفو ؛ وعرض علىَّ الضابط ثلاث محال على مائدة الضباط ، فشكرت له ذلك ، وآثرت أن أكون أنا واخوانى على مائدة واحدة . ومنذ حينئذ أخذ رئيس الخدم فى ملاطفتنا وحسن القيام على خدمتنا طول الطريق . ولما وصلنا الى مرسيليا لم نعطهم سوى نصف ما كنا عزمنا على منحهم اياه ، تأديباً لهم حتى يحسنوا سلوكهم مع غيرنا

وانى لم أتعرض لذكر هذه الحادثة الصغيرة فى حد ذاتها ، الا لأبين أن الانسان لا يجوز له التساهل فى حقوقه ، صغيرة كانت او كبيرة ؛ لان التساهل مما يذهب بها جملة ؛ وربما حمله بعض الناس على أنه من مستوجبات رقة الجانب ، وحسن الخلق ؛ ولكنى لا ارى فيه الا ضعفاً وهواناً ؛ وانى واثق من انى لو لم اقابل الضابط واكلمه كما ذكرت ما بدا أثر الاعتناء بشأننا اثناء السفر ، فالتمسك بما للانسان مع الاعتدال فرض تجب المحافظة عليه كما يجب القيام بسائر الواجبات اذا انت لم تعرف لنفسك حقها * هواناً بها كانت على الغير اهونا

ولما انتهينا من العشاء وصعدنا الى ظهر السفينة ، كان الليل قد أرخى سدوله ؛ فجلستُ على كرسى طويل، وأخذتُ أتأمل فيما حولى ، فاذا الركاب هذا يهرول فى مشيته احتيالاً على الهضم، وهذا يدخّن، وذاك يشرح لمن حوله حادثة من الحوادث ؛ والسيدات بين هذا الجمع يمشينَ الهوينـا ، تحدق بهنَّ الأبصار ، ويحيطهنَّ الاحترام الواجب للجنس اللطيف . ثمَّ شخصتُ الى السماء فاذا هى تتلألأ بنجومها الزهراء ؛ ولم ألبث قليلاً حتى أخذ فكرى فى الاسترسال ، فتذكرتُ هذا البحر العجاج، ومَنْ شقَّ عبابه من قديم الزمان ، والنيَّات التى حرَّكت أولئك الأقوام فاقتحموا الأخطار ، وتكبَّدوا مشاقّ الأسفار ، طمعاً فى الوصول الى غاية حميدة ، أو نيل مأرب خسيس ؛ هذا هيرودوت وغيره من علَماء اليونان هبطوا مصر ليستنيروا بمعارفها ، وهذا نابليون وغيره من الفاتحين جاؤا مصر لابتلاعها ، وهؤلاء المصريون يسافرون فى صيف كل عام الى الأقطار الأوربية، هذا لغرض شريف ، وهذا للرياضة ، وذاك لمجرَّد اللهو والطرب . وها هُم الافرنج غادَروا بلادهم وقصدوا مصر، وفيهم مَنْ تحلَّى بالآداب والفضائل تخدم البلاد ، ومنهم مَنْ جعل استنزاف الثروة نصب عينيه مضحّياً فى سبيلها كل احساس آخر . تنوَّعت المقاصد، والبحر وهو اكبر من كل ذلك ، يحمل هؤلاء وهؤلاء

كل من فى الوجود يطلب صيداً * غير أن الشباك مختلفات

وفيما أنا فى هذه الأمور أفكر، واذا بالسفينة قد مالت ذات اليمين وذات الشمال، والأمواج ترتفع وتلطمها من الجانبين؛ وما بدأت هذه الحركة الاَّ وأخذ الركاب فى النزول الى غرفهم، فتجلدت، ثم لم أرَ بدًّا من الاستراحة، فيممت الحجرة، وقضيت الليل فى راحة أو ما يقرب من الراحة. ولما تنفَّس الصباح كان الجوّ قد اعتدل، والبحر صفا؛ فنفر المسافرون الى ظهر السفينة يتمتعون بالهواء النقى والمنظر العظيم، منظر السماء والماء، يحيط بهِ الأفق كالدائرة العظيمة، فانتظمت الجمعيات، فكنت تجد هنا لفيف المصريين مجتمعين يتحادثون، وهنا جماعة الافرنج يتناقشون، وهناك تلك الجمعية المختلطة التى تكثر أفرادها فى بلادنا، ويصعب تسميتها باسم مخصوص، لأنها فى الشرق تظهر بمظهر الغربيين، وفى الغرب تظهر بمظهر الشرقيين. ولم تمضِ ساعات قلائل الاَّ وكثر التعارف، وابتدأ التآلف

وهنا أخذت أتأمل فيما يتجلَّى حولى، فساقنى ذلك الى المقارنة بين تلك الجمعية الغربية، مع ما فيها من اختلاط الرجال بالنساء، والحرية المخوّلة فيها لهنّ، حتى ان كثيراً من السيدات اللواتى كنّ معنا لم يكن معهنّ أزواجهنّ، وكنّ مسافرات وحدهنّ، وبين

جمعيتنا الشرقية وما اليها من حجاب ونحوه . وبعد امعان الفكر فى هذا الموضوع ، رأيت أن الافرنج فرَّطوا ، واننا أفرطنا . نعم ان بين نساء الغرب من السيدات المتربيات الشريفات ، من هنَّ فى غاية الصيانة والعفاف مهما اعطينَ من الحرية ، ومهما كثر اختلاطهنَّ بالرجال. ولكن الحكم فى هذه المسائل وغيرها ، انما يبنى على مجموع الأمة ، لا على بعض أفراد امتازوا بالأدب والكمال

وأما نحن فلم نقف عند حد الشريعة ؛ بل تغالينا فى الحجاب ، وأهملنا شؤون النساء ، فعاد هذا الاهمال على جمعيتنا بالخسران . فالدواء الوحيد هو الرجوع الى ما فرضتهُ الشريعة بدون زيادة عليهِ ، لأن السلامة توجد حيث يكون الاعتدال

وقد دار الحديث بينى وبين بعض اخوانى المصريين على سفر الشرقيات الى أوربا ، فوجدت الجميع من رأيى وهو عدم استحسانه ، اللهمَّ الاَّ اذا كان لضرورة كمرض أو نحوه ، والاَّ فخروجهنَّ من خدورهنَّ ووجودهنَّ فى وسط لم يتعودنه مفسد لأخلاقهنَّ ؛ فضلاً عن أن العيشة التى تعودنها من الصغر لا تحلو لهنَّ بعد عودتهنَّ

ولم يزل البحر ساكناً حتى اقتربنا من كريد ، وهناك قابلتنا أمواج كالجبال اضطربت لها السفينة خوفاً ، وامتلأت منها قلوبنا رعباً ، وكأن بحر كريد اكتسب شيئاً من أخلاق أهلها ، فهو دائماً

فى حركة واضطراب. وقد ذكّرنى اسمها ما جرى فيها من الحوادث فى قديم الزمان وفى هذه الأيام، من حصار طويل؛ ثم فتح، ثم قلاقل وحروب، اشتركت فى بعضها عساكرنا المصرية، ثم فتنتها الأخيرة وانسلاخها عن الدولة العلية. ومهما تكن الاسباب التى قضت بانسلاخها، والتى يكون القول فيها من شأن السياسيين لا من شأنى، فانى أرى أن هناك سبباً عظيماً يجب التأمل فيه بالنسبة لها ولغيرها من البلاد التى فتحها الترك، وهذا السبب هو عدم اختلاط الترك الفاتحين بالأمم التى فتحوا بلادها مهما طالت المدة، وتمادى بهم الزمان؛ فهم بمحافظتهم على الابتعاد الكلى بين الغالب والمغلوب؛ جعلوا الاهالى يترقبون الفرصة للتخلص من ثقل ذلك النير الذى على عاتقهم، والذى تذكّرهم به كل يوم جنسيتهم التى لم تختلط، ولغتهم التى لم تتغيّر، وعلاقتهم مع الفاتح الذى لم يتزوج بهم، بل تركهم أمماً متفرقة، تجمعهم قوته، ويفرّقهم ضعفه

وعلى العكس من ذلك كان العرب؛ فانك لو نظرت الى البلاد التى فتحوها، لوجدت ان لغتهم تغلّبت على اللغة الأصلية، وان عوائدهم حلّت محل العوائد القديمة، وانهُ بعد زمن قليل صار من الصعب التمييز بينهم وبين القوم الذين تغلّبوا عليهم؛ لأنهم صبغوهم بالصبغة العربية، فأنسوهم أصلهم؛ ولذلك رغماً عن زوال مملكة

العرب ، بقيت البلاد التى احتلوها كما تركوها تدين بدينهم ، وتتكلم بلغتهم ، وتمسك بعوائدهم ، وتنسب نفسها اليهم

وعلى ذكر العرب والترك ، مرّت بخيالى الوقائع البحرية التى حصلت للمسلمين على ظهر هذا البحر الذى كنت أشقّ عبابه . وكلما كنت أمعن فى الفكر ، كانت تمرُّ أمام عينى هذه الحوادث بارزة مجسَّمة ؛ فرأيتُ مراكب سيّدنا معاوية تسير من الشام الى القسطنطينية ، وعليها مِنْ أبطال العرب مَنْ تخرّ لبأسهم الجبال ؛ ولكن رغماً عن بسالتهم وإقدامهم ، لم يتمكّنوا من فتح هذه المدينة العظيمة ؛ لأن الروم كانوا يرمون مراكبهم بنار من أعلى الأبراج فتحرقها بدون أن يقدروا على اطفائها ، وبقيت فى يد الروم حتى فتحها السلطان محمد الفاتح فى سنة ١٤٥٣ م

ثمَّ رأيتُ عمارة عظيمة قامت من تونس وعليها الأعلام الإسلامية ، فسارت فى البحر شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ، حتى بلغت شواطئ ايتاليا وفرنسا ، وخشى كل منهما بأسها . ولمّا اقتربت علمتُ أنها عمارة بنى الأغلب ملوك تونس أصحاب الكلمة العليا فى البحر الأبيض ، ثمَّ رأيتها هجمت على جزيرة صقلية فافتتحتها عنوة ، واحتلّها المسلمون سنة ٢٦٤ هـ ولبثوا بها نحو المائتى عام . وكانت الجزيرة فى مدّة حكمهم عامرة ، تتدفّق من سهولها

الخيرات ، ويغبطها على سعادتها سكان ايتاليا المجاورين لها

ثمّ رأيتُ عمارة كبيرة عليها أعلام الانكليز والفرنسيين ، قامت مِن أوربا الى الشام ، لتخليص بيت المقدس مِن يد حامي بيضة الإسلام السلطان صلاح الدين ، الذى كان أخذها مِن يد المسيحيين فى سنة ٥٨٣ هـ ؛ فاجتمع لقتاله ريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا ، وفيليب أوجست ملك فرنسا ، وفردريك بربيروس ملك المانيا ، فلم ينالوا منهُ مأربًا ؛ وبعد قتال عنيف ، وعناء شديد ، لم يستولوا الاّ على عكا ، ولكنهم لم يلبثوا بها قليلاً ، حتى انقلبوا راجعين الى أوربا مقهورين مدحورين . وهذه هى احدى الحروب الصليبية التى سُفكت فيها الدماء ، ويُتِّمَتْ فيها الأطفال ، واضطرب لها العالم السنين الطوال ؛ قامت باسم الدّين والدّين برىء من مثل هذه الرزايا ، ولكنها أهواء الرجال تستتر وراء الدين أو المدنية أو نحوها ، على حسب الزمان ، ومقتضيات المكان

ثمّ رأيتُ مراكب لويس التاسع ملك فرنسا ، وهى قاصدة دمياط لكى يتّخذ صاحبها مصر قاعدة لأعماله فى الشام ؛ ولكنهُ لم يصل الى فارسكور ، حتى قهرت جيوشَهُ الجنودُ المصرية ، وأخذتهُ أسيراً فى يوم الأربعاء ٣ محرّم سنة ٦٤٨ هجرية ، وسُجن بالمنصورة بالدار التى كان ينزل بها القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب

الإنشاء ، ووكلَ بهِ الطواشى صبيح المعظمى . وقد قال فى ذلك الوزير جمال الدين يحيى بن مطروح عدَّة أبيات ، قال فى آخرها :

قُلْ لهم إِن أضمَروا عودة لأخْذ ثار أو لِنَقد صحيح
دارُ ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشى صبيح

ولم تزل هذه الدار باقية للآن

هذا ، ولمَّا قصد لويس التاسع المذكور فتْح بلاد تونس ، قال شاب من أهلها يقال له أحمد بن اسماعيل الزيَّات هذَين البيتين :

يا فرنسيس هذه أُخت مصرٍ فتأهَّبْ لِمَا اليهِ تصيرُ
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيكَ مُنكَرٌ ونكيرُ

وبينما أنا أتأمَّلُ فى هذه الحوادث ، واذا بأسطول جرَّار ، قد رُفعت عليه أعلام مثلثة الألوان ، يحمل نابليون الى مصر

أراد هذا القائد أن يحتلّ مصر ، ليعاكس الانكليز فى الهند ، ففتحها ، ولكن الأميرال الانكليزى نيلسون دمَّرَ العمارة الفرنسية فى أبى قير ، وساعد الانكليز الأتراك على إخراج الفرنسيين من مصر ، فخرجوا منها بخفى حنين

ثمَّ وجَّهتُ فكرى صوب الشواطئ اليونانية ، فرأيت منظراً هائلاً ؛ رأيت عمارة يخفق عليها الهلال ، راسية فى ميناء صغيرة ، وهى آمنة مطمئنة ، تمايل جواريها مع حركة الأمواج ، كالعروس فى

ليلة زفافها ، وأكثر رجالها قد نزلوا الى البرّ للنزهة وقضاء بعض الأمور ؛ واذا بأسطول عليهِ أعلام مختلفة قد اقترب من الميناء ، فلم تحسب له العمارة الإسلامية حساباً ، لأنها ليست معهُ فى حرب ؛ ولكنهُ بعد قليل فاجأها بنار حامية ، وقد أخذها على غرَّة وهى واقفة ، فلم تستطع الدفاع فَدُمِّرَت تدميراً . هذه هى واقعة ناڤارين التى ذهبت فيها العمارة التركية والأسطول المصرى ، فلم تَقُمْ لَهُما قائمة بعدها . وهذه السفن التى دَمَّرتهما هى سفن الانكليز ، والفرنسيين ، والروسيين ، أَطلقت على مراكبنا النيران فقُتل منا ستة آلاف رَجُل ، مع أنها لم تدخل معنا فى حرب ، والحرب انما كانت بيننا وبين اليونان ، وكانت الهدنة معقودة بناء على طلب الدول

وبعد أن تمثَّلَ لخيالى هذا المنظر المؤلم ، ضاق صدرى ، ومنعتُ نفسى عن الاسترسال ، لأن الحوادث التى تلى كلها من هذا القبيل ؛ فتمشَّيْتُ قليلاً ، ثمَّ نزلتُ الى غرفتى لعلّى أجد فى النوم بعض الراحة من التأثيرات والانفعالات التى كنت عُرضة لها ؛ فصرت أتقلَّبُ على جنبى ، ولم تغفل عيناى الاَّ قليلاً ، حتى أيقظتنى صفارة الوابور المستمرَّة ، فانتبهتُ من نومى مذعوراً ورأيت السفينة تمشى الهوينا فسألتُ عن الخبر ، وعلمت أننا دخلنا بوغاز مسين ، ورأيت ضباباً كثيفاً قد أحاط بنا ، فصرنا لا نرى أمامنا شيئاً ، وقد هرع الركاب

الى ظهر السفينـة ، وكلهم خائف متذكر غرق سفينة بورغونيا حيث كان الضباب سبباً فى اصطدامها بمركب آخر وغرقها . ولم نزل كذلك نحو الساعتين حتى انقشع الضباب ، وصفا الجوّ ، فحمدنا المولى على ذلك ونمنا حتى الصباح مطمئنين

ولما كان اليوم التالي ، جزنا بين جزيرة سردينيا التابعة لايتاليا وجزيرة قورسيكا التابعة لفرنسا ، والمشهورة بكونها وطن نابليون الاول . وبعد ان فارقناها بقليل ، هاج البحر وارتفعت أمواجه ، ثم اقتربنا من مرسيليا فلم نعبأ باضطرابهِ . وقبل وصولنا بعدة ساعات ، شاهدنا جبال فرنسا ترتفع أمامنا ؛ وما زلنا نجدّ السير حتى وصلنا الى محجر فريول فى صباح الاربعاء ٢٧ يونيو ، لوجود الطاعون فى بورسعيد والاسكندرية . ومكثنا في هذه الميناء الصغيرة التى تحيط بها الجبال من كل ناحية نحو ثمان ساعات ، حتى زارنا الاطباء ، وطهروا المتاع الذي رأوا حاجة لتطهيره ، ولم نرَ منهم إلاَّ كل لطف وتساهل . ثم سرنا حتى دخلنا ميناء مرسيليا ، ومررنا من الجمرك ، فكان أول ما تلقّانا بهِ عماله هل معكم دخان ؟ وهم مع محافظتهم على حقوق الحكومة مؤدبون لينو العريكة مع الاجانب

من مرسيليا الى باريس

مرسيليا

هى اكبر مدن فرنسا بعد باريس وليون ، اختطَّها اليونان سنة ٦٢٠ قبل الميلاد ، وساعدها مركزها الطبيعى على البحر المتوسط ، فتقدَّمت تقدُّماً سريعاً ؛ حتى انَّ الرومانيين لم يستنكفوا من أن يعاهدوها . وهى الآن متَّسعة الأرجاء ، مشيَّدة البناء ، يقطنها ٤٤٠٠٠٠ ساكن ، وتجارتها واسعة لاسيما مع البلاد الشرقية ، ومصانعها تنحصر على الأخص فى معامل الحديد ، والسكَّر ، والصابون ، ومعاصر الزيوت

وانشاء السكة الحديدية المعروفة بطريق سان جوتار الموصلة بين سويسرا وايتاليا ، وتحسين ميناء چنوا ، قد أضرَّ بمرسيليا بعض الضرر ، فان ميناءها وخصوصاً بعد الإصلاح الأخير الذي تمَّ فيها ، لم تزل اكبر الموانى الفرنساوية ، وأهم موانى البحر المتوسط

وقد رأيت فى أهلها نشاطاً عجيباً ، وتعلقاً غريباً بأسباب الكسب والحصول على الثروة ؛ (ولعلَّ ذلك قد أتاهم بطريق الوراثة عن أجدادهم الأقدمين مؤسسى المدينة) وهم معجبون بأنفسهم ومدينتهم أيما إعجاب ، فيعتقدون فى أشخاصهم النباهة والذكاء ، وفى مدينتهم أنها أعظم المدن وأحسنها ، خصوصاً بعد أن

خُطَّ فيها شارعها المشهور المعروف باسم الكانبيير

ومرسيليا كجميع الموانى تكثر فيها الأجناس ، فترى فيها الشرقى بعمامته أو طربوشه ، والصيني بشعره المسترسل وراء ظهره ، واليابانى بلونه الأصفر ، وأمشاجاً من جميع سكان أوروبا على اختلاف ملاهم ونِحَلِهِم ؛ فاذا جلس الإنسان الى قهوة ، سمع هذا يتكلم بالعربية ، وذاك باليونانية ، وآخر بالنمساوية ، بما يتوهم معهُ أنهُ في المنشية أو في الأزبكية ؛ وان كان الاختلاط في بلادنا اكثر ، وتبلبل الألسنة فيها أوفر

ولما كانت هذه المرّة الحاديةَ عشرة التي وجدت فيها بمرسيليا ، نويت أن لا أطيل فيها الاقامة ، وعزمت على السفر الى مونبلييه فى اليوم الذى وصلت فيهِ ، فأرسلت بتتاعى الى المحطة ، وركبت عربة كى أقضى الوقت الذى كان باقياً لى قبل قيام الوابور فى مشاهدة عامة ، لأرى ما أحدث فيها من جديد ؛ فمررت من شارع الكانبيير وهو أهم شارع فى المدينة ، تحفه المبانى الفخمة من كل جهة ، وبهِ قصر البورصة والفنادق المشهورة ، حتى انتهيت الى قصر لونشان ، وبهِ متحف الصور الزيتية ، ومتحف التاريخ الطبيعى ، وخلفهُ حديقة الحيوانات ؛ ومن هناك اتجهت الى شارع البرادو ويبلغ طوله عدة كيلو مترات ، وقد غرست فيهِ أشجار كثيرة ، فوصلت الى قصر

بورللى وبهِ متحف الآثار، وقد زرته قبل ذلك فوجدت فيهِ رسماً للمرحوم محمد على باشا رأس العائلة الخديوية، أهداه للمتحف كلوت بك الطبيب المشهور الذى سُمِّىَ باسمه شارع كلوت بك بالقاهرة وأصله من مرسيليا، ورأيت فيه قسماً مخصصاً للآثار المصرية، من موميات وتماثيل وغيرها. وعلى ذكر هذه الآثار أذكر انى لم أزر متحفاً من المتاحف الاوربية إلاّ ورأيت فيه كثيرًا من آثارنا المصرية؛ ولكنى لم أرَ بمتحفنا المصرى شيئاً من النفائس الأوربية، وذلك وحده يدلك على تفريطنا وحرص غيرنا، وعلى اهمالنا وتيقظهم

ثم صرت الى طريق جميل على شاطئ البحر معروف بمتنزه الكرنيش، ومنه الى كنيسة العذراء، وهى على مرتفع عالٍ يصعد اليها الانسان الآن فى عربة معلقة بالسلاسل، فيرى أثناء صعوده المدينة تمتد أمامه سطوحها المائلة من الجانبين، يكسوها القرميد الأحمر، أو ألواح الاردواز الرمادى، ويرى من بينها الكنيسة الكبرى بزخرفها وضخامتها ترتفع أبراجها نحو السماء

وللبحارة فى كنيسة العذراء اعتقاد كبير، وهم يسمونها كنيسة السيدة الحارسة، وقبل سفرهم يأتون أفواجاً لزيارتها والتبرّك بها، وتزويد الطرف من تمثالها الجميل المنصوب فوق قبتها، فيراه الداخل

الى الميناء والخارج منهـا يتألق فى الشمس بلونه الذهبي ، وقد اتجه الى البحر كأنهُ يحيط ملاَّحيهِ بحمايتهِ ، ويكلأهم بعين رعايتهِ

ولما حان وقت السفر ، سرتُ متجهاً الى المحطة مارًّا بسراى المديرية ، وسراى البلدية ، والتياترو الكبير وهو ضخم البناء . ولما استقرَّ بى المقام فى عربة السكة الحديد ، تفقَّدتُ متاعى فلم أجـد شمسية كنتُ وضعتها مع احدى الحقائب ، فناديت الحمَّال وسألتهُ فأنكر أخذها وأتهم صاحب العربة ، وطلب منى أن أزيد له فى الأجر لأنهُ حافظ على مالى ، وحجز لى فى العربة محلاً استريح فيه ، فحمدتُ المولى على عدم ضياع ما هو أثمن من الشمسية ، وقلتُ فى نفسى : وهذه أُسِرُّها لمرسيليا

ثمَّ سار بنا القطار مارًّا على عدة محطات منها (آرل) المشهورة بجمال نسائها ولُطف أخلاقهنَّ ؛ و (نيم) وهى مدينة جميلة زُرتها فى شتاء سنة ١٨٩٢ عندما كنت أطلب علم الحقوق فى مدينة مونبلييه ، فراقنى منظرها وحُسن معاشرة أهلها . وقد أدهشنى ما رأيتـهُ فيها عند زيارة مركز البلدية ؛ اذ رأيت شعار المدينة عبارة عن تمساح ونخلة وهى كما ترى رموز مصرية ، فبحثتُ عن السبب ، حتى تحققتُ أنها تأسَّستْ فى مدَّة الرومان ، بواسطة فرقة عسكرية كانت تقيم فى مصر ، فلمَّا صدر لها الأمر بالتوجُّه الى نيم ، حفظتُ هذه الرموز

لتكون تذكاراً دائماً للبلد الذى آواها ، وأكرم بفضله مثواها . وهذا شأن مصر مع نزلائها ، ما سكنها غريب الاَّ أحبَّها ، ولا مرَّ بها ضيف الاَّ وتمنَّى الإقامة فيها ؛ لأنها طبعت على استئلاف الغريب بما تسديه من خيرها ، وإكرام النزيل بما توليه من برها ، وإن بالغت على بنيها بخلها ، وآثرت بنعمها غير أهلها

وبعد نحو الأربع الساعات ، وقفَ القطار ونودى باسم مونبلييه ، فنزلتُ مسرعاً وأنا فى غاية الشوق لرؤية هذا البلد الذى قضيتُ فيهِ ثلاث سنين من شبيبتى ، بين دراسة القوانين والعلوم الاقتصادية والماليـة . وكانت الساعة العاشرة مساءً ، فأودعتُ حقيبتى النزل الكبير وهو على مقربة من المحطة ، وتمشيتُ فى الشارع الذى أمامها حتى وصلتُ الى ميدان الكوميديا ، وبهِ أعظم القهاوى الكبيرة والتياترو ، فرأيت أنهُ من سنة ١٨٩٢ ، وهى السنة التى أتممتُ فيها دروسى وفارقتُ فيهـا مونبلييه ، تغيَّرَ شأن المدينة عن عهدى بها تغيُّراً عظيماً ؛ فالكهرباء حلَّتْ فى الشوارع محلّ الغاز ، وسار الترامواى فيها فقرَّب المسافات ، ثمَّ هُدِمت المبانى القديمة التى كانت مُطلَّة على الميدان من الجهة الغربية فصار اكثر اتساعاً من قبل ، وشُيِّدَت عليهِ المبانى الجميلة والعمارات الشاهقة ، ثمَّ غُرِسَتْ الحدائق . كلّ ذلك يدلّ على حياة المدينة ، وسهر القائمين بشؤونها على تحسينها ،

والتخطّى بهـا فى سبيل التقدُّم والعمران . وبعد أن جلستُ هنيهة للاستراحة فى بعض القهوات متأمّلاً فيمن حولى علّى أجد صديقاً قديماً ، أدركنى التعب ، فقمتُ الى غرفتى طلباً للراحة ، وما كدتُ أرقد فى سريرى الاَّ وهجمت علىَّ جيوش الأفكار ، فتذكرتُ مدَّة الطلب ، وأسفت عليها لأنى كنت فيها مرتاح البال ، قوى البنية ، لا أعرف للأمراض اسماً ، حسن الاعتقاد فى جميع الناس ، كثير الآمال ، لا يشغلنى سوى الرياضة وهى لذيذة ، أو الدرس وهو ألذ ، مؤملاً لوطنى سريع التقدّم والنجاح ، راجياً فى أهله السعى وراء الاتحاد والائتلاف لتقويم ما اعوجَّ من أخلاقهم ، واستدراك ما مرَّ من أغلاطهم ، يدهم بعضهم فى يد بعض لكشف غياهب الجهل ، واقتباس أنوار العلوم ، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، متعاونين على فعل الخير ، غير متباغضين ولا متقاطعين ، متناصحين كما يرشدهم الى ذلك العقل السليم ، وتدلهم عليهِ الشرائع ، ولا عجب إذا كانت هذه أفكارى وقت ان كانت الأشياء تظهر لى كلها بمظهر بديع ، وتلوح لى الطبيعة وكلها محاسن تأخذ باللب ، وما هى الاَّ عين الشاب ، يرى الأشياء كلهـا جميلة لقلَّة اختباره . وما زالت الحوادث التى وقعت لى بعد هـذا العهد السعيد ، تمر أمامى كأنها صوَر متحركة يديرها السينماتوغراف ، فيفترُّ لبعضها الثغر ابتساماً ، وينقبض من

بعضها الصدر أسفاً، وتسيل عند رؤية الأُخرى العبرات: من عودة للوطن العزيز، ولقاء الأهل والأحباب، فالانخراط فى سلك الحكومة، فالتأثر مما تدل عليهِ القضايا من الأخلاق الذميمة، والتقاطع بين الأهل، والحسد والضغائن وحب الشرّ والابتعاد عن الخير، مما يتألم له كل ذى احساس سليم، ثم الاقتران، فالبنون، فالفراق، فالآلام، فكل أحوال الدنيا بما فيها من العيوب والكروب. واذ ذاك تأملت فيما كنت أراه حسناً جميلاً، فوجدتهُ قبيحاً ضئيلاً، وما هى الاَّ عين الاختبار ترى الأشياء على حقيقتها، وهل هى الاَّ سبع سنين؟ فكيف بمن يعيشون السنين الطوال، وتكثر عندهم الخبرة وتقل الآمال ....

وما زلت احتال على النوم، حتى نمت بعد زمن ليس بالقصير، وقمت فى الصباح مبكّراً، فتوجهتُ الى مدرسة الحقوق وقابلت ناظرها، فاستقبلنى بكل ترحاب، وأخذ يسألنى عن حالى وعن أخوانى الذين يعرفهم، وقمت من عنده كى أعيد النظر على المنازل التى كنت أقطنها، واذ هى على حالتها، ولكنى لم أقابل الاَّ قليلاً من المعارف، لأن الطلبة الذين كنت أعرفهم تفرقوا فى جميع أقطار الدنيا، وصار منهم القاضى، والنائب، والطبيب، والصيدلى، والمحامى، والكاتب، والطبيعى، والرياضى، والجغرافى، والتاجر،

والمصوّر ، والزارع ؛ لأن مدينة مونبلييه على صغرها ، اجتمع فيها من المدارس ما لا يجده الانسان فى عاصمتنا المصرية على ضخامتها ، وكلها على غاية من الانتظام ، يقوم بالتدريس فيها أساتذة ماهرون من ذوى الشهرة فى جميع أوربا ، كؤسيو چيد استاذى فى الاقتصاد السياسى ، وموسيو جراسيه صاحب الباع الطويل فى الأمراض الباطنية ، وغيرهما من العلماء الأفاضل البارعين فى جميع العلوم ، والمتفانين فى خدمتها وترقّيها مدة حياتهم

وهنا أُلاحظ فرقاً بين أخلاقنا وأخلاق الأُوروبيين ، فالواحد منا متى استوى فى مركز تطلّع الى غيره ولو لم يكن من نوعهِ ، فالقاضى يريد أن يكون مديراً ، فيمنعه ذلك عن الانكباب على درس القوانين ، للوقوف على أسرارهـا ومعرفة عيوبها ، والاستاذ يريد أن يكون قاضياً ، فيعدل عن البحث فى الطبيعيات أو التاريخ الى مطالعة الشرائع . وقس على ذلك ما بقى . وأما الحال عند الأُوروبيين فانهُ متى اختار أحدهم طريقاً مشى فيهِ بجد واجتهاد ، وعمل ما فى وسعهِ ليمتاز فيهِ ، لأنهُ مُوَطِّنٌ نفسه على انهُ سيبقى بهِ طول حياتهِ ؛ فالقاضى الصغير لا يتطلّع الاَّ الى وظيفة قضائية أرقى من التى يشغلها ، وهذا لا يكون الاَّ اذا اشتهر بين أقرانهِ بادراك المعانى القانونية ، واستنباط الأحكام القضائية . ولهذا السبب كثر من يبلغ منهم فى

علمه درجة بعيدة المنال، وربَّ قاضٍ تزدهي بوجوده المحاكم والأحكام، ولكنهُ في غيرها ضعيف الحيلة، كثير الخطأ

وللطلبة شأن عظيم في مونبلييه، لأن عددهم فيها يزيد على أربعة آلاف طالب متفرقين بين المدارس الابتدائية والتجهيزية والمدارس العليا: كمدرسة الحقوق، ومدرسة الآداب، ومدرسة العلوم الرياضية والطبيعية، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة الزراعة، ومدرسة الفنون الجميلة، ومدرسة التجارة، ومدرسة الطب وهي قديمة العهد، أسسها العرب، وبقيت كتب ابن سينا تدرس فيها الى عهد قريب

وبهذه المناسبة أذكر انهُ في سنة ١٨٩٢ عثر العملة وهم يحفرون في أحد الشوارع على حجر من رخام، عليهِ كتابة عربية، فكان لهذا الاكتشاف شأن كبير عند جمعية الآثار، فحافظت عليهِ وانتدبتني وأحد الاخوان لحل رموزه وموافاة الجمعية بما تقف عليه من أمره، وقد وجدنا هذا الحجر مثلث الشكل وارتفاعه يبلغ متراً ونصفاً، وعليهِ كتابة من وجهين، والوجه الثالث مجوَّف كالقناة، وهو من الرخام الأبيض الناصع، كُتب عليهِ بالخط الكوفي الجميل، المحلى بأوراق الشجر، البسملة من جهة، ومن جهة أُخرى الآية الكريمة « إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا »

ولذلك رجحت انهُ كان فى « سبيل » ماء ، وعرضت هذا الرأى على الجمعية فوافقت عليهِ ، واستنتجتُ من ذلك ان العرب لم يمروا بمونبليه مجرَّد مرور كما كان يزعمه البعض ، بل استوطنوها وشيَّدوا فيها العمارات السامقة ، كما يدل على ذلك هـذا الحجر الذى وجد مدفوناً تحت الأرض ، مع ما هو عليهِ من حسن الخط ، ودقة الصنع

والمتأمل فى حالة مونبليه ، وهى مدينة لا يزيد عدد سكانها على ٧٣ ألفاً ، وفى عدد مدارسها وما اليهـا من متاحف ، وحدائق للنبات ، ودور كتب ، وما فيها من المستشفيات العديدة والمتنزهات والقصور العظيمة : كسراى المحاكم ، والمديرية ، والبوستة ، والقلعة ، والتياترو وغيرها ، يرى الفرق الكبير والبعد الشاسع بين حالتنا الاجتماعية ، والتمدن والحضارة التى وصلت اليهما الأمم الغربية ، لاسيما اذا أضفنا الى ما تقدَّم جملةَ الصناعات التى يجدها الانسان فى هذا البلد الصغير من معامل للماكينات ، والموازين ، والبلياردات ، والشمع ، والشوكولاتو ، والنبيذ ، والأقمشة الصوفيـة ، والدباغة ، والغزل ، والمطابع ، والجمعيات العلمية العديدة : كجمعيـة الآداب والعلوم ، وجمعية الآثار ، والجمعية الجغرافية ، والجمعية الطبية وغيرها ؛ فالغربيون تقدَّموا أدبياً ومادياً بجدهم ونشاطهم ، بينما نتفاخر بالعظام الرميمة ، والأجسام البالية ، جهلاً منا بأن هذا التفاخر مما يسجل

العار علينا ، لأننا لم نحفظ مجد الآباء ، ولا تليد الأجداد ، فكنا كالوارث المبذر الذى لا يحسن التصرّف ، فيحجر عليهِ حتى يستقيم

وان طلبت منى دليلاً على ما قدّمت ، فأقول لك انى كُلفت مرة من قبل شركة طبع الكتب العربية بمصر بانتقاء بعض الكتب المفيدة لطبعها على ذمة الشركة ، فوقع انتخابى على كتاب الشريف الادريسى المشهور فى تخطيط البلدان . والكتاب طبع مرتين فى أوروبا ، مرة فى ايتاليا ، وأُخرى فى هولاندا ، ورأيتهُ لأوّل مرة فى مكتبة مدينة مونبلييه ، كما رأيت كتباً أُخرى عربية نفيسة مما لا نعرفها الاَّ بالاسم ، أو لا نعرفها بالمرَّة ، وكلها مطبوعة ، وقد علّقت عليها الهوامش ، وبعضها مترجم بالفرنسية واللاتينية ، وهى تباع بأغلى الأثمان ، ولا تكاد تطبع الاَّ وتنفد نسخها ، ويتبارى فى اقتنائها العلماء المستشرقون ، والمكاتب العمومية . ولما عرضت نتيجة انتقائى على مجلس ادارة الشركة ، اعترف جميع الأعضاء بأهمية الكتاب ، ولكنهم لاحظوا انهُ لا يروج لعدم ميل القرَّاء الى مثل هذه الكتب ، ولذلك قرروا عدم طبعهِ الآن . وانى لا ألوم حضراتهم بل آسَف على حالة الأمة التى وصل فيها كساد العلوم الى هذا الحد

وعندى برهان آخر وهو أن الشبيبة فى كلّ أمة حيَّةٍ تكون عنوان النشاط والهمة ، والأخذ بأسباب التقدُّم ، لأن شبان اليوم هم

رجال الغد ، ولذلك تجدها فى البلاد الأوروبيـة تعمل على التآلف والاتحاد ، وتأسيس الجمعيات المفيدة ، ساعية وراء كل مايعود عليها بالنفع ، ويعقد لها المستقبل الزاهر . فالطلاب فى مدينة مونبلييه مثلاً ، تجد لهم محلاً فاخراً بنوه من مالهم لكى يجتمعوا فيه للمسامرة ، وإلقاء الخُطب فى وجوه المباحث النافعة ، والتمثيل ، وتعلُّم الضرب بالسيف ، وركوب العجلات ، والفوتغرافيا ، والموسيقى ، ونحو ذلك من الكماليات ؛ وكلّ هذا فى مقابل مبلغ زهيد يؤدّيه كلٌّ منهم شهرياً .

وبهذه الواسطة ، وبفضل هذا الاتحاد ، حصلوا على امتيازات كثيرة مادية وأدبية : كوجود وفد نائب عنهم فى كل حفلة رسمية ، ودخول التياترو بأقلّ من القيمة المقرَّرة لغيرهم ، وشراء ما يحتاجون اليهِ من السلع بتنزيل متَّفق عليه ؛ فهم أصحاب صوت محترم فى المدينة

وأما فى بلادنا ، فلا يكادُ الانسان يحس بحركة تدلّ على وجود دم الحياة فى عروق طلابنا ، فتلامذة الحقوق بمعزل تام عن تلامذة الطب ، وهؤلاء لا يدرون من أمر اخوانهم بالمهندسخانة شيئاً ؛ وقس على ذلك سائر المدارس . وليس ذلك لعدم ادراك ما ينجم عن الاجتماع من الفوائد ، لأن ذكاء التلامذة المصريين معروف ، ولكن لعدم التعوُّد على تأسيس الجمعيات والنوادى

فيا أيها المنادون بتأسيس الشركات ، ويا من يستحثون الأمة

المصرية على التكاتف والتعاون على العمل لِما فيه مصلحتها ، هلاَّ تركتم الآباء وشأنهم ، وقد خُلِقوا كما ترونهم وصَعُبَ عليهم المسير بغير ما تعوَّدوا ، والتفتُّم الى الأبناء فانكم تجدون عجينة ليّنة يمكن تشكيلها بالشكل المطلوب ، تجدون دماً طاهراً وقلباً يميل الى الخير واكتساب المعالى ، تجدون نفوساً زكية تعمل على كل ما يعود على البلاد بالرقّ والإصلاح متى وجدت مرشداً عاقلاً ، ونصيحاً أميناً ؛ وهى ان تعوَّدت هذه الأخلاق الكريمة فى صِغَرِها ، صارت طبعاً غريزياً فيها متى كبرت ، وأصبح من الصعب عليها العدول الى ما يناقضها ...

* * *

وفى عصر يوم الخميس ٢٨ يونيو ، ركبتُ القطار من مونبلييه ، فوصلتُ بعد عشرين دقيقة الى بلافاس . وفى طريقى مررتُ على (لات) وهى قرية صغيرة ، رأيت فيها بقية سور من الحجر كان ابتناه العرب عند ما احتلوا هذه الجهات ، وما زالت القرية محافظة عليه لليوم ، وهو من الحجر الأبيض يبلغ سمكه نحو المتر وارتفاعه نحو المترين ؛ ويظهر أنهُ كان يحيط بالقرية من جميع الجهات ، ورأيت فى الجزء الباقى منهُ أثراً لبوابة كانت مركَّبة عليهِ فقلت فى نفسى : سبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . أما بلافاس ، فهى ميناء صغيرة على البحر الأبيض المتوسط ، وفى

الشتاء لا يسكنها الاَّ الصيادون ، وأما فى الصيف ، فيكثر فيها المسافرون لأن بها كازينو وعدةَ فنادق وحمامات ، فيمضون بها الأسابيع الطوال للاستحمام بماء البحر ، والتمتع بهوائه اللطيف

ومما لاحظتهُ فيها ، ان حمام الرجال والنساء واحد ، بخلاف ما تقتضيهِ الآداب ، ويطلبهُ الكمال

ثم رجعت الى مونبلييه ، وقمت منها مودعاً فى الساعة الحادية عشرة مساءً ، قاصداً مرسيليا لمقابلة بعض الاخوان ، والسفر منها الى باريس . ولما وصلنا الى مدينة تارسكون ، نزلنا لتركب القطار المسافر الى مرسيليا ، فرأيت على افريز المحطة رجلاً يحيط بهِ آخرون ، وهو يفتش فى ثيابهِ ، فاقتربت منهُ وعلمت أن لصاً سلبهُ ساعته عند نزوله ، ورأيت فى الجمع رجلاً يكثر من الإشارات والتهديد ، كأن اللص الذى سرق الساعة أمامهُ ، أو كأنهُ تخيَّل طَرَّادًا يريد أن يسلبه متاعه ، فأخذ يحذره قائلاً : أما أنا ، فلا يسرقنى سارق ، ولا يقدر لص على ان يسلبنى شيئاً ، فتلك الأعصاب والعضلات (مشيراً الى ذراعيهِ) ، تحمينى من كل معتدٍ أثيم الخ . الخ . فضحكت من كلام هذا المهذار ، وعلمت من افتخاره بنفسه انهُ من مرسيليا ، وقد سألته عن بلده فما أخطأنى حدسى

ولم نبلغ مرسيليا الاَّ الساعة الخامسة صباحاً ، ولم تغفل عيناى

طول الطريق ، لا سيما بعد علمى بما جرى لصاحبى بتارسكون ؛ فقصدتُ نزل اللوفر ، وعوَّضتُ ما فاتنى من النوم . وفى الساعة التاسعة مساءً ركبتُ قطار الرابيد ، الذى يقطع المسافة بين باريس ومرسيليا — ويبلغ طولها ألف كيلومتر تقريباً — فى ١٣ ساعة ، وقد سلكتها سبع مرَّات ، تارةً بالليل وأخرى بالنهار ، وكنتُ أتوهَّم إنى سائر بين بساتين يتبع بعضها البعض لكثرة ما كنت أشاهده من الأشجار والغدران والأنهار . وقد لاحظتُ ان أغلب الفلاَّحين يسكنون فى غيطانهم حتى يكونوا على مقربة من مَنَاطِ عملهم ، فلا يضيعون الوقت فى الذهاب الى مزارعهم والعودة منها ؛ فترى منازلهم الصغيرة النظيفة المبيضة بالكلس والمبنية بالحجر ، منتشرة فى وسط الأراضى ، وبجوارها حظيرة المواشى ، وأعشاش الطيور المنزلية ، وهذه الطريقة حسنة ، ولكن لا يتوفَّر العمل بهـا الاَّ فى البلاد التى يسود فيها الأَمن ، وتستتبّ فيها أسباب الراحة

والزروع التى كنتُ أشاهدها ، هى فى الجنوب : العنب والزيتون ؛ وفى الشمال : القمح ، والكتان ، وأشجار الفاكهة الاخرى ، والبنجر الذى يستخرجون منهُ السكَّر والبقول ؛ وكلّ ذلك يُسقى بماء الأمطار ، فلا يؤثر فيـهِ ارتفاع الأنهار أو قلَّة الفيضان . أما معدن الأرض فرملى حجرى ، ولكن اجتهاد الفلاَّح ، واستعماله

الآلات الزراعية المتقنة، مع الاستفادة من الاكتشافات والاختراعات العلمية ، جعل هذه الأرض القاحلة جنَّة من جنَّات الأرض ، واستخرج منها على ما علمتُ محصولاً أوفر من المحصول الذى تخرجهُ الأراضى المصرية ؛ فقد رأيتُ فى العام الماضى تقريراً ، أظنّ أنهُ لمصلحة الدومين ، ومنهُ يتبين ان متوسط محصول الفدان من القمح فى بلادنا ، ينقص بقدر الثلث عن مثله فى فرنسا ؛ فعجبت لذلك ، ولكنى رجعت فقلت ان الأمر لا يستغرب على قوم خرقوا الصخر ، وبنو المدن على ثبج البحرِ

والسكة الحديدية تمرّ بمدن كثيرة مشهورة : كمدينة أرل وتارسكون ، وأهلها كجيرانهم سكان مرسيليا مشهودون بشدة الافتخار والذهاب بالنفس ، و (افينيون) التى كانت محلاً للكرسى البابوى من سنة ١٣٠٩ ، الى سنة ١٣٧٦ ، وللبابا فيها قصر قديم ، ومدينة (مونتيليمار) المشهورة بنوع الحلوى المعروفة بالجوزية ، وهى ايضاً بلد موسيو لوبيه رئيس جمهورية فرنسا الآن ، ومدينة (فلانس) عاصمة مديرية الدروم على نهر الرون ، ومدينة (ليون) اكبر مدن فرنسا بعد باريس ، وهى مشهورة بصنع الحرائر الجميلة ، زرتها من سنتين فوجدتها مدينة عظيمة تكثر فيها التجارة ، وبها من الشوارع الكبيرة ، والمبانى الفاخرة شىء كثير ، وأخلاق أهلها

على العكس من أخلاق أهل مرسيليا ، فهم ميالون الى الدعة والدأب على العمل بدون ضوضاء ، ولذلك تجد الحركة فى الطرق العمومية قليلة لانكباب أهلها على الاشتغال فى المعامل ، وقلة وجود العاطلين فيها . وفيها من المدارس الكبيرة والمستشفيات العمومية ، ما يضارع أعظم ما يوجد فى أكبر مدن أوروبا ؛ ثم مدينة (ديجون) وهى أيضاً من المدن التى تكثر فيها المدارس ، وهى مركز مديرية الكوت دور ، التى شهرت بكونها وطن بوسويه الخطيب الفرنسى فى القرن السابع عشر

وقد وصلنا الى محطة باريس حوالى الساعة العاشرة صباحاً ، بعد ان قضيت الليل بين نوم وحديث مع فرنسى وانكليزيين كانوا راكبين معى

فحمدت الله على السلامة ، ونزلت الى فندق بوچون بمحلة الشان ايليزيه ، حيث كنت حجزت لنفسى غرفة فيهِ

خطرات أفكار عنهم مدينة الأنوار

باريس

يقف البنان ، ويحجم اللسان ، عن وصف هذه المدينة الكبيرة ، بل الدنيا الصغيرة ، وتضيق العبارة عن تأدية المراد ، وتقصر الألفاظ

عن الاحاطة بما فى الفؤاد ، كيف لا وهي باريس التى شغلت بجمالها ألباب الشعراء ، كما شغلت بمحاسنها تآليف الأدباء ، فسكانها يبلغ عددهم الثلاثة الملايين ، ومحيطها يبلغ طول دائرته ستة وثلاثين كيلومتراً ، وطولها اثنى عشر كيلومترًا ، وعرضها تسعة كيلومترات ، ومسطحها نحو العشرين ألف فدان ، وجوّها جيد معتدل ، ولكنهُ سريع التقلُّب ، فقد وصلت فيها الحرارة فى ٩ يوليه سنة ١٨٧٤ الى ٣٧ درجة ، ووصلت فى صيف هذا العام الى ما يقرب من ذلك ، واشتد فيها البرد حتى هبطت الدرجة فيها الى ٢٣ تحت الصفر فى ١٠ دسمبر من سنة ١٨٧٩ ، وتكثر فيها الأمطار لاسيما فى زمن الصيف ، فتلطّف الهواء ، وقد دلّت الاحصائيات على ان عدد أيام السنة التى تنزل فيها الأمطار ٢٠٠ يوم ، وان عدد أيام الصحو ١٠٠ ، فهذا العدد الذى يراه المصرى قليلاً بالنسبة لما تعوّده فى بلادنا ، هو فى الحقيقة عظيم بالنسبة للبلاد الاوروبية التى تكثر فيها الزوابع والأمطار

وباريس قديمة العهد ، وكانت تعرف قبل المسيح باسم (لوتس) ورد ذكرها فى كتاب يوليوس قيصر القائد الرومانى الذى افتتحها سنة ٥٢ قبل الميلاد ، وكانت فى هذا الوقت عاصمة أمة الباريسيين ، ومنهم أُخذ اسمها الحالى . وقد تنصَّر أهلها فى

القرن الثالث ، وأقام فيها قونسطنس امبراطور الرومان مدة طويلة، كما أقام فيها كثير من خلفائهِ

وفى سنة ٤٩٧ اتخذهـا كلوفيس ملك فرنسا عاصمة للبلاد الفرنسية ، ولم تزل كذلك الى يومنا هـذا . وهى واقعة على نهر السين الذي يمر من وسطها ، فيشطرها شطرين ، تربط بينهما ٢٥ قنطرة عظيمة ، بعضها من الحديد ، والبعض من الحجر ، ومتوسط عمق النَّهر ثلاثة أمتار تقريباً ، وأما عرضه فيختلف بين ١٣٦ مترًا و٢٩٣ متراً

وهي تنقسم ادارياً الى عشرين قسماً ، فى كل قسم منهـا عمدة منتخب من قِبل الأهالى ، وقاضٍ للمصالحات ، وكلٌّ من هذه الأقسام ينقسم الى أربعة أحياء ، كل حي ينتخب أربعة أعضاء المجلس البلدى ، وهذا المجلس ينتخب رئيساً لهُ من بين أعضائهِ ، وينظر فى كل ما يتعلق بالمدينة من نظام ونظافة ونور وأموال ونحو ذلك ، فاذا انضم اليهِ الثمانية الأعضاء المنتخبون بمعرفة أهل القرى المجاورة لباريس ، يكوّن مجلس مديرية السين ، وينظر فى الشؤون المتعلقة بهذه المديرية بما فيها باريس كرسى المديرية

ويرأس المديرية مدير ، كما يرأس البوليس مدير آخر ، يقال لهُ مدير بوليس باريس

وباريس لم يكن فيها فى أوائل هذا القرن التاسع عشر ، سوى ٥٤٧٧٥٦ ساكناً ، فأصبح عدد سكانها اليوم خمسة أضعاف هذا العدد ، وهذه الزيادة السريعة لم تكن ناشئة عن زيادة المواليد ، ولكن من كثرة الأجانب ، وسكان الأرياف الوافدين عليها من كل حدب للإقامة فيها ؛ فقد لوحظ أنهُ لا يوجد بين سكان باريس وهم كما علمت ثلاثة ملايين ، سوى ٨٠٠٠٠٠ تقريباً مولودين فى نفس المدينة ، وقد دلت الاحصائية التى عملت سنة ١٨٨١ على وجود ١٦٧٤١٤ أجنبياً من عشرين مملكة مختلفة ، بينهم ٧٧١ من رعايا الدولة العلية ، وهذا العدد يزيد بما يقرب من ثلث عدد الأجانب المقيمين فى القطر المصرى ، كما هو وارد بالإحصائية التى عملت فى العام الماضى

ووسائل النقل كثيرة فى باريس كما يقتضيه اتساع ارجائها ، وبعد أطرافها ، فتجد بها الآلاف من العربات ، والترامواى الذى تجره الخيل ، أو تسير بهِ الكهرباء ، ومركبات الأمنبوس ، والسفن ، والسكك الحديدية التى تمشى على سطح الأرض ، أو تنساب فى جوفها تحت الشوارع والمنازل ، وكلها مزدحمة بالركاب ليلاً ونهاراً

وأما التجارة والصناعة ، فحدّث عنهما ولا حرج ، ولولا ضيق المقام لسردت طرفاً من المصنوعات التى تعمل فى باريس ، وتكلمت

عن المخازن العمومية، كاللوفر وغيره، مما تشغل ادارتهُ عمالاً لا يقلون عن موظفى أحد الدواوين الكبيرة عدداً، وإنما هناك صناعة انفردت بها باريس، واشتهرت بها بين جميع الأمم، وهى ما يسمونه بالأصناف الباريسية، وهى عبارة عن المصوغات، والمجوهرات، وأدوات التدخين، والكتابة، والموبليات الصغيرة، ونحو ذلك مما وجد فيهِ الذوق الباريسي مجالاً للظهور، ومعرضاً يتجلى فيهِ، فقصر عن مجاراته كل مجارٍ، معترفاً لهُ بالسبق والفوز. وهذه الأصناف وحدها كانت تشغل فى سنة ١٨٧٥ — ٣٤٩١٨ عاملاً، معدل أجرة كل واحد منهم ثلاثة فرنكات ونصف، ولا مشاحة فى أن هذا العدد، لا بد وأن يكون قد ازداد كثيرًا من ذلك العهد، وزادت معهُ نسبة الأُجرة التى يتناولها كل عامل. ويتبع ذلك من البيوتات التجارية والمالية، ما يضيق عن حصره الفكر، وحسبك ببنك فرنسا الذى طبقت شهرته الآفاق، ومن هنا تعلم مبلغ الحركة المالية التى توجد فى باريس، والأعمال التى تتم كل يوم فى بورصتها

وهذه الأعمال التجارية، وهذا الاشتغال بالأحوال الدنيوية، لم يمنع الباريسيين من مساعدة البائسين، ومعاونة العجزة والمساكين، ومؤاساة أصحاب العاهات، ومد يد المعونة لأرباب الحاجات،

فشيدوا المستشفيات الكبيرة، والملاجئ الكثيرة، وبنوا المدارس المجانية، ورتبوا المرتبات الكافية لمن عضهم الدهر بنابه، توزع عليهم بمعرفة مكتب المساعدة والاسعاف الموجود بكل قسم من أقسام المدينة؛ فكان لهم بذلك عظيم الفخر، وجزيل الأجر

والمدارس فى باريس كثيرة العدد بين عمومية وخصوصية، أهلية وغير أهلية، وكلها فى غاية الانتظام من حيث البناء والترتيب أو الدرس وانتقاء المعلمين. وشهرة هذه المدارس قديمة، فمن القرن الثالث عشر، كانت تفد اليها طلاّب البلاد الأجنبية، للاقتباس من أنوارها، والتزود من علومها. وفى القرن السادس عشر، انعقد الإجماع على أن باريس هى عاصمة الأنوار، ومحط رجال الذوق السليم، ومهبط الآداب

وأشهر تلك المدارس، مدرسة الطب، ومدرسة الحقوق، ومدرسة العلوم الرياضية والطبيعية، ومدرسة الآداب، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة اللاهوت، ومدرسة اللغات الشرقية، ومدرسة العلوم السياسية؛ كل ذلك بخلاف المدارس الابتدائية والثانوية، ومدارس التجارة والصناعة والرسم مما يصعب حصره. ويتبع ذلك جمعيات علمية كثيرة، ومكاتب عمومية كبيرة، كالمجمع العلمى الفرنسى، وجمعية الفنون الجميلة، والجمعية الطبية، والجمعية الجغرافية

وغيرها مما تفتخر بمثله البلاد ، ويحق لها ان تفتخر ، لأن هذه المجتمعات العلمية ليست فقط اسمية، وانما تضم من أكابر الرجال ، من يخضع أمام عالميته الكبير والصغير ، ويعترف بفضله الأمير والحقير

وأما دور الكتب ، فأشهرها المكتبة الأهلية ، وبها ١٢٠٠٠٠٠٠ مجلد من الكتب المطبوعة و ١٠٠٠٠٠ مجلد من الكتب المخطوطة ؛ ومكتبة سنت چينيفيف ، وفيها ٢٠٠٠٠٠ مجلد . والزائر لهذه المعاهد يأخذه العجب من حسن ترتيبها ، وكثرة كتبها ، وكيفية تنسيقها ، الى ما يجده فيها من كثرة المطالعين ، وازدحام الباحثين ، شأن كل أمة عرفت قيمة العلم ، وقدَّرتهُ حق قدره ، فبذلت فى نيله عزيز المال ، ونفيس الأعمار ، فحصلت منهُ على الشيء الكثير ، فكان لها سيفاً تقطع بهِ مشكلات الأُمور ، وترساً تتقى بهِ تقلُّبات الدهور

وأما الشوارع والميادين الجميلة فكثيرة ، لا يخلو منها حي من الأحياء ، وكلها مرصوفة بالبلاط ، أو الأسفلت ، أو الخشب ، لا يسهو عمَّال الكنس والرش عن تنظيفها فى كل وقت . وأهم الشوارع ما يسمونهُ بالجران بولڤار ، أى الشوارع الكبيرة ، وهى متصلة ببعضها على طول عدة كيلومترات ، مكونة لقوس دائرة عظيمة . وتجد بالميادين التماثيل المنصوبة لأعاظم الرجال ، والأعمدة

الأثرية ، والفساقى المتدفقة بالماء العذب ، وهى مع حسن منظرها ، وبهاء رونقها ، تذكّر الأمة بمجدها ، وتعلّم الأطفال والشبّان حب الوطن ، حتى يصلوا الى درجة هؤلاء العظماء الذين أُقيمت لهم التماثيل ، ويتركوا اسماً مخلداً فى التاريخ محفوفاً بالتجلة والاحترام

ومن أهمها ميدان الجمهورية ، وبهِ تمثال عظيم للجمهورية . وميدان فندوم ، وبهِ عامود قام على ذروتهِ تمثال نابليون الأول ، وهذا العامود مصفح بصفائح سميكة من برونز المدافع التى غنمها صاحب التمثال فى حروبهِ مع النمساويين والروسيين . ثم ميدان الكونكورد أو الوفاق ، وهو أجمل ميدان وُجد فى العالم بأسره ، لاتساعه واتقان التماثيل التى تحيط بهِ ، وجمال الفساقى المنتشرة فى أنحائهِ ، ومن هذه التماثيل تمثال عظيم مرموز بهِ للألزاس واللورين التى فقدتها فرنسا فى حربها مع المانيا سنة ١٨٧٠ ، وهو دائماً مكلل بالزهور ، وفى وسطه مسلة الأقصر المصرية ، التى أخذهـا الفرنسيون فى سنة ١٨٧١ ، وهى موشاة بالكتابة الهيلوغرافية ، وقد حلاها الفرنسيون بالذهب ، وكم من مرة وقفت بجوار هذه المسلة ، وهى مثلى غريبة ، وتذكّرت الوطن ومن فيهِ ، وتذكرت أيضاً مسلة المطرية ، واهمالها فى وسط الغيطـان ، والاعتناء بمسلة الأقصر ، ونصبها فى أعظم ميدان بباريس ، وقلت فى نفسى كم من عالم مجهول بين معشره

وخاصة أهله ، على حين يعترف الاجانب بجميل أثره وجزيل فضله

وقد يعجز الواصف عن ذكر ما يحيط بهذه الميادين ، ويرتفع على جوانب هاتيك الشوارع من القصور الباذخة ، والآثار الثمينة ، والعمارات السامقة ؛ وأى قلم يتمكنهُ ان يحيط بما أُودع فيها من حسن الصنع ، وما اشتملت عليهِ من بديع الفنون . فهذا قصر اللوفر الشهير الذى بدأ فى بنائه فرنسيس الأوَّل سنة ١٥٤١ ، ولم يتم الاَّ فى مدة حكم نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ ، وهو الآن اكبر متحف فى العالم ، وبهِ قسم عظيم للعاديات المصرية ، قضيت فيهِ ثمانى ساعات ، فلم أرَ كل ما حوى من النفائس بين تماثيل وصور وأوانٍ وغير ذلك . وهذا قصر لوكسمبرج ، وقد بنى فى سنة ١٦١٥ لمريم دى ميديسى ملكة فرنسا وأُم لويس الثالث عشر ، وهو الآن مركز مجلس الشيوخ ، وبهِ متحف للتماثيل والصوَر الجديدة . وهذا قصر الاليزيه ، مركز رئيس الجمهورية بحدائقه الزاهرة ، وغرفه الفاخرة . وهذا القصر الملوكى الذى شيَّده الكردينال ريشيليو سنة ١٦٢٩ ، وهو الآن مجلس شورى الحكومة . وهذا قصر بوربون ، مركز مجلس النواب . وهذا قصر التروكاديرو الذى بنى لمعرض سنة ١٨٧٨ ، وهو الآن متحف لأخلاق الأُمم ، وما يتعلق بها من ملبس ونحوه . وهذا قصر البلدية الرائع . وهذه السرايات

الخصوصية. وهذه النوادى والمحلاَّت العمومية، تسابقت فى الزخرف والبهاء، وتواسمت فى الحسن والرواء، فكانت بهجة للناظرين، وفخراً دائماً للمشيدين

وما يقال فى العمارات والقصور، يقال فى المتاحف ومراسح التمثيل؛ ففى هذه المدينة العظيمة كل شىء عظيم، ولا عجب وهى كعبة التمدن العصرى، اذ بلغ فيها كل شىء منتهاه

فمن المتاحف المهمة غير ما ذكرناه، متحف كلونى، وهو يحتوى على نحو ١٢٠٠ قطعة من الآثار المختلفة، بينها أكبر ماسة فى فرنسا، وهي على قدر الجوزة الصغيرة، وبهِ عدد عظيم من الأحذية بينها حذاء المصريين القدماء، والأحذية المصرية المعروفة الآن. ومتحف كارنفاليه، وبهِ ما يختص بتاريخ باريس من الآثار. ومتحف الطوبجية. ومتحف جريفين، وبهِ الوقائع العصرية والتاريخية ممثلة بحيث يراها الانسان، فيتخيل لهُ انهُ حاضرها لدقة صنعها، وكمال اتقانها

وأما محلاَّت اللهو، فكثيرة جداً، حتى ان الانسان لو أراد أن يطوف بها كلها، للزمه سنة كاملة على الأقل، ومن بين هذه المحلاَّت أربعون تياترو لتشخيص الروايات على اختلاف أنواعها، والحكومة تدفع مساعدة لأربعة منها، وهى: الكوميديا الفرنسية، والاوبرا

الهزلية ، والاوديون ، والاوبرا الكبيرة . وهذا التياترو الأخير ، هو أعظم معهد للتمثيل فى العالم . وقد بنى فى سنة ١٨٦١ ، ويبلغ مسطحه ١١٢٣٧ مترًا مربعاً ، أى ما يقرب من ثلاثة أفدنة . وقد أُدخل فى عمارته جميع أصناف الرخام المعروف الى اليوم ، وتبلغ المساعدة السنوية التى تؤديها له الحكومة ٨٠٠٠٠٠ فرنك

والكنائس ، وعددها نحو السبعين ، كلها بديعة الشكل ، عالية الأبراج ، مزخرفة الجدران ، لا سيما كنيسة السيدة العذراء المعروفة باسم نوتردام ، وكنيسة المادلين ، وهى على مثال هيا كل الرومان

ولا تنسَ الحدائق والمتنزهات ، والبساتين والغابات ، فلديك منها ما تقرُّ بهِ النواظر كحديقة التويلرى ، وحديقة لوكسمبرج ، وقد نصبت بها تماثيل مشاهير النساء من الفرنسيات ، وحديقة المرصد ، وحديقة الحيوانات ، وقد جمع فيها من أنواع الوحوش والطيور ما يظهر عظمة الخالق ، ويبهر عين المخلوق ، وبها منطاد مثبت فى الأرض بحبل طويل ، يصعد فيهِ الإنسان فتظهر له باريس كلها كالعروس قد ازدانت بأبهى حليها . ثم غابة بولونيا ، وما أدراك ما هى ، مرتع الغزلان من بنى الإنسان . وروضة يستنشق فيها الباريسيون الهواء النقى بعد فراغهم من عناء الأعمال ، لرياضة الجسم وإراحة البال . ثم حديقة النبات ، وبها من أصنافه الغريبة ما لا يدخل تحت حصر ،

وقد أقيم بها متحف للتاريخ الطبيعى ، رأيت فيهِ هيكل حوت يبلغ طوله نحو الخمسة عشر متراً ، ورأيت فيهِ جماجم كثيرة مرتبة طبقاً لمذهب دروين ، أى على قاعدة الترقى من القرد الى الزنجى ، فالصينى ، فالمصرى ، فالأوروبى (طبعاً) ، وقد لاحظت ان جماجم الجنس الأبيض كثيرة التعاريج فى مسطحها ، وأما جماجم الزنوج فتقرب من جماجم القرود ، أى انها ملساء خالية من الخروق ؛ ومع ذلك فانى لا أعتقد بمذهب دروين ، بل أدعه ومن شاركه فى رأيه يُنسبون للجد الذى اختاروه . وقد رأيت هيكلين آدميين ، فقرأت ما كتب عليهما ، فاذا الأول منهما قد كتب عليهِ محمد أبو المجد من منفلوط ، وعلى الثانى السيد أبو المجد من منفلوط ، فعجبت لوجودهما فى هذا المكان ، ولم أقف لهما على سر للآن

ويوجد فى باريس نحو الخمسين سوقاً لبيع البقول واللحوم وغيرها من لوازم الطعام

والمدينة محصنة تحيط بها الخنادق ، وتحميها سبع عشرة قلعة ضخمة

وأما ضواحيها ، فجميلة وكثيرة العمران ، وأهمها فونتنبلو المشهورة بقصرها الملوكى ، وغابتها الواسعة ، وفرساى المعروفة فى جميع العالم بقصرها الفخم ، وحدائقها الغناء

وانى مهما اجتهدت فى الوصف ، وحاولت الإحاطة ولو سطحياً بما حوتهُ هذه العاصمة الكبرى من روائع الآثار ، وثمرات الأفكار ، أرى نفسى مقصراً ، وأحسن شىء أقوله لمن يريد منى زيادة التفصيل ، ولا يرضى إلاَّ بالشرح الطويل ، عليك بالرحيل الى هذه المدينة ، وانظر بنفسك ما اشتملت عليهِ من النفائس والزخارف ، فما راء كمن سمع

عادات الباريسيين واخلاقهم

تجتمع فى الباريسىّ أخلاق الأمة الفرنسية بأسرها ، فالتكلم على أخلاقه ، هو عبارة عن وصف أخلاق مجموع الأمة الفرنسية ألمهّ الاَّ بعض خصوصيات ثانوية ، تمتاز بها بعض الجهات ، مما لا يؤثر فى النظر العام تأثيرًا يذكر ؛ وذلك لأنهُ بسبب سرعة المواصلات ، وانتشار الجرائد والمطبوعات ، صارت العلاقة بين عاصمة الحكومة الفرنسية والأقاليم مستمرة ، والناس فى كل أمة مقلدون فى كل ما يرون أو يسمعون بهِ مما يجرى فى عاصمتهم ، فضلاً عن أن باريس يزداد عدد سكانها فى كل يوم ، ممن يرحلون اليها من القرى والمدن الأُخرى ، فتصبغهم بصبغتها الخصوصية ، وتزداد بهم قوَّة ، حتى قال بعضهم : إن الانكليز يهاجرون الى

الهند، والألمان الى أمريكا، والفرنسيون الى باريس؛ ولهذه الأسباب صارت اكثر العواصم ازدحاماً، إذ يبلغ فيها عدد سكان الكيلو متر الواحد المربع ٣١٠٠٠، وهى نسبة عظيمة كما ترى

وأول شيء يستوقف فكر الغريب فى باريس، هو كثرة الحركه فى الشوارع، وتعدد محلاّت اللهو والطرب، مما يتخيل معهُ أن الباريسيين قوم خلقوا للانهماك فى اللذات، وتمضية الوقت فى التشبب والمغازلة؛ والحقيقة أن أغلب هذه الحركه ناشيء عن كثرة الأجانب، وهذه الملاهى إنما شيدت بأموالهم، وأما الباريسيون الحقيقيون، فينقسمون الى قسمين: فريق أغناه ماله عن العمل فاشتغل باللذة والرياضة، وفريق وقف نفسه على الجد والاجتهاد، فلا ينقطع عن السعى وراء عيشه، ولا يقعده عنهُ كسل أو خمول، وهذا الفريق هو الأكثر عدًّا، ومع ذلك، فكل يعرف كيف يرتب وقته، قسماً لمعاناة الأعمال، وقسماً لراحة البال

والجميع محافظون على القواعد الصحية، والاعتناء بالأعياد الملية، والاحتفالات القومية، لا يفوتهم الحضور لسماع وعظ الواعظ، أو حضور الرواية الجديدة، أو الاختلاف الى معارض الرسم والنحت وغيرها

والأَخلاق الغالبة على الباريسىّ هى: لطف المعاشرة، وخدمة

الإخوان، وعدم اخفاء ما فى الضمير، والتسامح، والأدب، وطلب أسباب الانشراح والسرور، وحب الفنون الجميلة، وسهولة التعبير، والرغبة فى التأثير فى السامع بانتقاء العبارات، واختيار الكلمات والفطنة والمجون ظاهراً، وحب الجد باطناً، والاعتدال فى الأفكار وسرعة الحركات، ورقة الذوق، وحب الاطلاع، والميل الى كل جديد وكرم النفس، وعدم الحذر، وضعف الاعتقاد، ومساعدة كل أمر يستحسنهُ، ولكن لِوَقتٍ معلوم، وكثرة القول بلا عمل، مع ثبات الجأش وقت الحاجة، واحترام القوانين، والميل للتعميم، والالتفات الى مجموع الشيء بقطع النظر عن مفرداته، والعلم اكثر من العمل، والثقة بالنفس، وكثرة الحيَل

والباريسىّ أشد الناس احتراماً للأموات؛ فان مرّت جنازة من وسط الشارع، وقفت لهـا العربات والناس، ورفع المارون قبعاتهم احتراماً لها؛ وذلك بعكس ما يشاهده الإنسان فى بلادنا، حيث تقطع العربات صفوف المشيعين بدون أدنى اكتراث ولا مبالاة؛ وليس الذنب فى ذلك على سائقيها لأنهم من رعاع الناس، ولكن على راكبيها وعلى المشيعين الذين يطلقون لها الطريق، وعلى البوليس الذى لا يلاحظ مثل هذه المخالفات، ويدخل تحت هذا الاحترام الاعتناء بشأن المقابر، ونظافة الطرق كما يجد ذلك كل من خرج الى

قرافة الإمام أو غيرها من مقابر القاهرة . والأعجب من ذلك ، أنك تسمع اكابر القوم وأصاغرهم يتأففون من هذه الحال فى كل مرّة يشيعون فيها ميتاً من الأموات ، وليس فيهم رجل رشيد يخدم ملته وبلاده بالسعى وراء عمل اكتتاب أو نحوه لإصلاح هذا الخلل وازالة هذا العار . ومن أراد أن يعلم كيف يحترم الباريسيون أمواتهم على الوجه المعقول ، فعليه أن يتوجه لإحدى الجبانات فى ٢ نوفمبر ، وهو يوم عيد الأموات ، فيجدهم حضروا لزيارة موتاهم ، ووضعوا على قبورهم بكل خضوع وخشوع باقات الزهور ، وأكاليل الورد ؛ ثم ينصرفون بكل سكينة بعد ان يستمطروا على أجدائهم طيب الرحمة والرضوان من الكريم المنان ؛ فليس هناك أكل ولا شرب ، ولا تعديد ولا نواح ، ولا بيوت يقطنها الأحياء والأموات ، لأن المقام مقام عظة واعتبار ، لا مقام مجانة واستهتار

ومما يلاحظه الغريب أيضاً ، احترام الناس للبوليس ، وعدم مخالفتهم أوامره ، لاعتقادهم انهُ يفعل ذلك محافظة على النظام ، وسعياً وراء راحة الجميع ، وبذلك تنتظم الأمور ، وتقل الأخطار ، ويندر وقوع الحادثات ؛ ولكن المصرى يريد ان لا يخضع لهذه السلطة الصادرة من مستخدم صغير ، وهماً منهُ بأنها اهانة له ، وما الاهانة الاّ فى عدم احترام القوانين ، والانحراف عن القيام بما تقتضيه

الواجبات . نعم لا أنكر ان البوليس فى أوروبا قائم بشؤونهِ خيراً من بوليسنا ؛ ولكن ذلك لا يكون سبباً فى خرق حرمتهِ ، وعدم الاكتراث بما يطلبهُ منا فى المصلحة العامة

ومن الأمور التى تدلّ على شدة احترام الأموات المقرون بتمجيد أعاظم الرّجال الذين خدموا البلاد ، تخصيص البنتيون لدفن كلّ فرنسى أفاد بلاده فائدة تُذكر فتُشكر ، وهو عبارة عن كنيسة شاهقة البنيان ، شُيِّدَت فى سنة ١٧٦٤ ، وكُتب عليها ما معناه : هذا ما شاده الوطن شكراً لأبنائهِ العظام . وهذا المحل موجود فى وسط حىّ الطلبة أمام مدرسة الحقوق ، ليكون درساً لهم يتعلّمون منهُ أن مَن خدم بلاده لا يضيع عمله ؛ بل يخلد اسمهُ على وجه الزمان

ومن قبيل هذه الدروس النافعة ، الاحتفال بالأعياد الوطنية التى لا يقصد منها مجرّد الزهو والافتخار ، وانما يقصد بها تربية الامة ، وترقية احساسها وعواطفها نحو الوطن ، وتذكيرها بما فعل أجدادها للحصول على الحرّية ، وما بذلوهُ من الأرواح فى سبيل استقلال بلادهم ، وإعلاء شأنها ، وتأييد كلمتها ، فيحمل ذلك أفرادها على المحافظة على هذه الحرّية والاستقلال ، وتلبية داعى الوطنية متى احتاج ذلك الحال

ومن غريب ما لاحظتهُ أن المصريين أكثر الناس تقليداً للأوروبيين ، ولكنهم لا يقلدونهم الاَّ فى الأمور الضارَّة ، أو التى لا تضرّ ولا تنفع ، كتناول المشروبات الروحية ، ولبس البنطلونات الضيقة ، ونحو ذلك ؛ وهم فى هذا الباب لا يكتفون بمجرَّد التقليد ، وانما يتغالون فيهِ ؛ ولكن أعينهم غافلة عن تقليد محاسن الأوروبيين من جدٍّ ونشاطٍ وخدمة للوطن وتمضيد كلّ مشروع مفيد ؛ فلا حول ولا قوَّة الاَّ بالله !

وللباريسيين اعتناء شديد بتحسين مدينتهم ، حتى تكون دائماً حاملة لواء التمدن ، ورافعة علم الحضارة ؛ ولذلك تبلغ ميزانية البلدية نحو اثنى عشر مليوناً من الجنيهات فى العام ، وكم من مرَّةٍ تأملتُ فى شواطىء نهر السين ، وقد أُقيمت عليها الأرصفة الجميلة ، وصارت أشبه شىء بالمتنزهات ، وتمنيت لنيلنا المحبوب أن يعتنى بشواطئهِ هذا الاعتناء ، فيكون لسكان القاهرة خير نزهة ، وأبهى روضة ؛ ولكن من يقوم بهذه الأعمال الجليلة ونحن عن أخص واجباتنا غافلون ؟ فاللهمَّ هبنا من لدنك رشداً ، ومن روحك قوة تحيي ما مات فينا من الهمة ، انك على كل شىء قدير !

ولا بدع — وباريس على ما قد سمعت — ان يزورها الملوك والأمراء اكثر من كل عاصمة أُخرى . وممن زارها فى هذا العصر

من ملوكنا المسلمين ، السلطان عبد العزيز ، واسماعيل باشا الخديوى الأسبق ، وشاه العجم السابق ، رحمهم الله ؛ وذلك فى سنة ١٨٦٧ ، بمناسبة المعرض الذى أُقيم فيها ، ثم مولانا العباس ، وشاه العجم الحالى

ومما يجدر ذكره ، ان الحدائق والمتاحف والمحلاّت العمومية ، كلها مفتحة الأبواب للداخل بدون مقابل ، يستوى فى التمتع بها الغنى والفقير ، والأمير والحقير ؛ وكل كتابة فيها باللغة الفرنسية لغة البلاد . وأما فى مصر ، فقد كُتب واأسفاه على الفقير الحرمان من غشيان مثل هذه المعاهد ، لأنهُ حينئذٍ لا بدَّ لهُ من دفع ضريبة ، واذا دخلها الغنى العاقل ، خرج منها بألف حسرة ، لأنهُ يرى الكتابة الموجودة فيها باللغة الأجنبية التى لا يفهمها فى الغالب ، كأن المصريين ليس لهم شأن فى كل هذه الأُمور ، ولا تهمهم معرفة هذه المعروضات ، أو كأن هذه المحلاّت ليست فى مصر الاَّ ليُنْفَقَ عليها من مال المصريين

ومما يؤخذ على الباريسيين حبهم المفرط لكل جديد ، مما يثير فيهم شيئاً من الطيش والخفة ، فمثلاً متى قامت فيهم حكومة من الحكومات وكان فيها بعض العيوب ، فبدلاً من أن يصلحوها ، يسعون فى قلبها والاستعاضة عنها بشكل جديد ، وربما كان شرًّا من سابقه ؛ ولكنهُ مستحسن عندهم لأنهُ جديد ؛ ولذلك كانت الحكومة

عندهم مزعزعة الأركان ، تلهيها المحافظة على كيانها عن القيام بجلائل الأعمال ، ومحكم التدابير ، ولكنهم مع ذلك ميالون لنصرة المظلوم على الظالم ، متشيعون لكل من يطلب الاستقلال . وقد شوهد منهم مظاهرات عنيفة فى سنة ١٨٤٠ ، أثناء الخلاف الذى شجر بين المرحوم محمد على باشا والدولة العلية ، كانوا فيهِ من صف المصريين

ومما يؤخذ عليهم أيضاً ، عدم ميلهم للزواج الشرعى ، وتغاليهم فى حبّ الاطلاع الى درجة يستنكفها العقل ، كاستحضارهم قبائل من عبيد أفريقيا ووضعها بحديقة الحيوانات ، لمشاهدة أخلاقها وعوائدها ، وهى مكفوفة وراء سياجاتٍ ، تفصل بينها وبين المتفرجين كأنها وحوش ضارية ، وغير ذلك مما أتحاشى ذكره . وهم لشدة اعتقادهم بارتفاع درجة مدنيتهم وحضارتهم ، تجدهم جاهلين بأحوال الأُمم الأُخرى ، ولا سيما الشرقية منها ، وقد حادثت بعض المتعلمين منهم ، فوجّهوا الىّ أسئلة مختصة بمصر والمصريين ، كلها يَشفّ عن الجهل التام ؛ وما المصرى منهم ببعيد ؛ فكيف تكون معرفتهم بمن هم أبعد منا قراراً ، وانأى مزاراً ؟

ولكن لا يُنكر عليهم انهم خدموا الانسانية باختراعاتهم وتآليفهم ، ولسنا ننسى ان باريس كانت فى القرن الثامن عشر مركز

هؤلاء الفلاسفة والكتّاب، الذين نادوا بالحرية والاستقلال، فدوى صوتهم فى جميع أنحاء الدنيا، فأثار الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩، وانقشعت امامهُ غياهب الجهل، وهدمت من شدة هزيته معاقل الاستبداد، وما هذا بالفخر اليسير

هذا، ولو أراد الانسان ان يذكر المؤتمرات الدولية والسياسية والعلمية التى اجتمعت فى باريس، لضاق المقام، ولكنى أذكر معاهدة واحدة تهمنا نحن العثمانيين، فليس بخافٍ انهُ فى سنة ١٨٥٦ اجتمع مندوبو الدول فى هذه المدينة، وعقدوا المعاهدة التى انتهت بها حرب القرم، وأهم ما جاء بها وبملحقاتها: قبول الدولة العلية ضمن الدول العظام، وضمانة الدول لاستقلالها والمحافظة على أملاكها، ومنع الروسيا من التداخل فى شؤونها الداخلية، وحرمانها من بعض الأقاليم التى كانت احتلتها على نهر الطونة، وتعطيل دور الصناعات (الترسانات) الحربية التى كانت لها على البحر الأسود، وفتح هذا البحر لتجارة جميع الدول، وجعله فى المنطقة التى تكون دائماً تحت الحياد، وجعل الملاحة حرة فى نهر الطونة، وغير ذلك من المسائل التى لم تحترم منها فيما بعد الاَّ ما كان جارياً فى فائدتها، عائداً بالمنفعة عليها؛ وهذا شأنها الآن فى كل معاهدة غير مكفولة بقوة تنفذها

والكلام على باريس والباريسيين كثير يستغرق المجلدات ، وحسبنا بهذا القدر ، ففيهِ غناء وكفاية والسلام

المؤتمرات الدولية

ورد عليَّ فى صيف هذا العام عدة دعوات للحضور فى كثير من المؤتمرات العلمية والقانونية، التى اجتمعتْ فى باريس أثناء المعرض، فاعتذرتُ الى أغلبها، وقبلتُ دعوة ثلاثة منها ، وهى: مؤتمر المقارنة بين القوانين والشرائع ، ومؤتمر الاعمال الخيرية ، ومؤتمر رعاية المحكوم عليهم فى سجنهم ، وبعد الافراج عنهم ؛ ولم أُوَفَّق الاَّ لحضور هذا المؤتمر الأخير ، فحضرتُ جلساته كلها ، وبعد ذلك اعتلت صحتى واعترانى التعب ، فاضطررتُ الى مبارحة باريس ، والإقامة بفيشى للانتفاع بمياهها المعدنية ؛ ولذلك فإني أخص هنا أعمال المؤتمر الذى حضرتهُ بنفسى ، وان كنت اشتركتُ فى غيره بواسطة المكاتبة

وفى هذا المقام أذكر أوَّلاً الغرض من هذا المؤتمر ، ثم نظامه ، فالقرارات التى تمَّ الاتفاق عليها فيهِ :

علِمَ الغربيون قوَّة الاجتماع ، وعرفوا كيف يستفيدون منهُ ، فألَّفوا الشركات التجارية والمالية ، وعقدوا الجمعيات العلمية والأدبية ؛ لأن ما تقدر عليهِ الجماعة، قد يعجز عن ادراكه الفرد مهما كانت قوَّتهُ

وادراكه ؛ ولذلك استعملوا هذه القوّة الهائلة (قوّة الاجتماع) فى كلّ أعمالهم الخيرية والدنيوية. ولمّا كان كثير من المحكوم عليهم جديرين بالرأفة والحنان ، وأهلاً للمعونة والعناية ، وقد يكون بينهم مَنْ ساقتهُ الظروف الى ارتكاب الجرائم فانقاد لها طائعاً ، وبعد ذلك ندم على ما فرط منهُ، وعزم على عدم العودة الى ما وقع فيهِ ؛ ومنْ تلبَّسَ بالجناية مضطرًّا لا مختاراً أو من صغُرت سنّه، ولم يجد من التربية ما يوقفهُ عند حد الاعتدال ؛ كما يكون بينهم نساء ضعاف ، وشيوخ ذهبت الأيام بحولهم وقوّتهم — تألّفت فى كلّ البلاد المدَّنة جمعيات سُمِّيَتْ بجمعيات حماية المحكوم عليهم ، الغرض منهـا زيارة المحبوسين فى سجونهم، وتشجيعهم على تحمُّل مصيبتهم بقلب كله ندم على ما فات ، وتصميم على حسن السير فى المستقبل . ثم اذا خرج المسجون من سجنهِ، ورأتهُ الجمعيـة أهلاً للعناية ، مدتهُ بالنقد حتى يجد لهُ عملاً يعمله ، صوناً لهُ من السقوط فى زمرة الاشقياء ، وساعدتهُ على الالتحاق بأحد المعامل إجابة لداعى الاخوة ، والرابطة الانسانية ، وعامل الشفقة التى تجذب القلوب نحو من خانهُ الدهر ، فسقط فى هاوية الجريمة ، وسعياً وراء حماية الهيئة الاجتماعية من كثرة عدد المجرمين العائدين ، وهم شرّ الناس ، واكثرهم ضرراً عليها

رأت هذه الجمعيات المتفرقة ان تعقد مؤتمراً عاماً، تشترك فيه

جميع الدول، ويدور فيهِ البحث فى المسائل المهمة بين أعضائها المختلفى الجنس، المتحدى المشرب، ليستفيد كل من تجربة أخيهِ، وتكون قرارات المؤتمر كنبراس تستضئ بهِ الأمم، وتسترشد بنوره الحكومات عند ما تسن القوانين أو اللوائح التى تدخل فى هذا الموضوع

تألفت لجنة لهذه الغاية فى باريس بعون من الحكومة، ووضعت النظام الأساسي للمؤتمر، ودعت الحكومات رسمياً للاشتراك فيهِ، ودعت أيضاً من كل بلد من عرفت اسمه، وتوسّمت أن حضوره يفيدها بعض الفائدة، فلبت طلبها كل الحكومات الأوروبية والأميركية، وأرسلت مندوبين من أعاظم رجالها، بين وزراء وأعضاء برلمان ومستشارين، ولبى طلبها أيضاً كثير من أهل العلم، والمشتغلين بالمسائل القانونية؛ لا فرق فى ذلك بين الرجال والسيدات، واشترك فى المؤتمر وزراء الحكومة الفرنساوية، ورؤساء مجالسها النيابية، وأعاظم علمائها وموظفيها. وأما الحكومات الشرقية فلم يشترك منها فيهِ سوى اليابان؛ فانها أرسلت ثلاثة من اكابر قومها. وكنت أنا المسلم الوحيد بين هؤلاء الأعضاء الذين جمعوا بين سمو المعارف، وعلو المرتبة، كما كنت أصغرهم سناً. وانى أحمد الله الذى وفقنى فتكلمت عدة مرّات أثناء المناقشات،

وأبديت آراء نالت استحساناً من جمهور الحاضرين . وأوّل مرّة تكلمت فيها بعث رئيس المؤتمر سكرتيره ، فأخذ منى بطاقة باسمى ، وقال لى بعد ذلك : «انى أشكرك كثيرًا على ما قلت وعلى اشتراكك معنا فى المناقشة ، وقد راقنى منك أيضاً انك تحسن الفرنسية كثيرًا ، وقد سررنا لاستماعك »

وأما كيفية نظام المؤتمر ، فقد انقسم أعضاؤه الى ثلاث لجان : الأولى للبحث في المسائل المختصة بالرجال ، والثانية للمسائل المختصة بالنساء ، والثالثة للمسائل المختصة بالأطفال . وكانت هذه اللجان تجتمع فى كل يوم من الصبح الى الظهر ، فيتلو عليها العضو المقرّر المسائل الواجب بحثها ، ويلخص الأقوال التى وردت بشأنها ، والتقارير التى كتبت عنها من أعضاء المؤتمر ، ويعرض عليها قراراً بما يراه . وبعد ذلك يفتح باب المناقشة ، فيبدى كل ما عنده حتى يتم الرأى على نص يكون هو قرار اللجنة . فاذا كان بعد الظهر ، انضمت هذه اللجان الى بعضها ، وتكوّن منها المؤتمر ، وعرضت عليه قرارات اللجان ، فيقبلها أو يعدّلها على حكم ما ترى الأغلبية ؛ ويكون هذا النص هو المعتبر وهو رأى المؤتمر ، فاذا فرغ المؤتمر من كلّ المسائل ، دوّنت أعماله فى مجلد ضخم ، وأرسل لكلّ عضو بنسخة منهُ ، مشتملة على أقواله وأقوال غيره

ومما يدل على اعتناء القوم وحسن ترتيبهم، أنهم لا يطبعون أقوال عضو إلاَّ بعد أن يصدق عليها؛ فقد أرسلوا اليَّ أخيرًا صورة من الأقوال التى قلتها لأصلح الغلط المطبعى الذى وقع فيها، فوجدت أقوالى هى هى، كما تلفظت بها حرفاً بحرف، لأنى بينما كنت أتكلم كانت تؤخذ كلمة كلمة بواسطة الكتابة المختزلة. وقد يترافع الإنسان منا فى القضية، فاذا أراد أن يراجع ما أثبتهُ كاتب الجلسة من المرافعة صعب عليهِ فهم ما سطرهُ على صفحات محضره، وربما تعذر عليهِ الوقوف على معنى هذه الألغاز والمعميات، ولله فى خلقه شؤون

كان يوم الأحد ٨ يوليو هو اليوم المحدود لافتتاح المؤتمر؛ ولذلك قصد فى صباحه الأعضاء الى زيارة المعروضات المتعلقة بهِ، وقد أعدت لهم لجنة الإدارة من يشرحها لهم، ويوقفهم على أسرارها؛ وأغلبها عبارة عن قوانين وألواح واحصائيات عن الجمعيات المشتغلة بحماية المحكوم عليهم، بحيث ان المطلع عليها يعلم كيفية نظام هذه الجمعيات، وما هى الخدم التى قامت بها. وقد كنت أظن ان التمدن الأوروبى مادياً محضاً؛ ولكنى تلقاء ما رأيت فى هذه المعروضات من الاشتغال بمساعدة المصابين، وتخفيف ويلات المحروبين، لا يسعنى الاَّ الاعتراف بأن القوم تركوا فى قلوبهم مكاناً عظيماً للاحساسات الشريفة، والعواطف السامية، وان يكن من

رأيت ومن خالطت، هم من نخبة القوم وأقومهم أخلاقاً؛ ومثل هؤلاء فى كل أُمة قليلو العدد، نادرو الوجود

وما أزفت الساعة الرابعة بعد الظهر، الاَّ واحتشد الخلق واشتدَّ الزحام فى سراى المؤتمرات، وهي عبارة عن قصر جميل، شُيِّد داخل المعرض لاجتماع الجمعيات العلمية فيهِ. وكان أعضاء المؤتمر يدخلون من أبواب المعرض دون أداء رسم، وذلك من الامتيازات التى منحتها الحكومة للمؤتمرات

ولما انتظم عقد الاجتماع، قام وزير الحقانية نائباً عن رئيس الوزارة، وافتتح المؤتمر رسمياً. ثم قام أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وذكر تاريخ جمعيات حماية المحكوم عليهم، وتكلم عن الخدم التى تقوم بها هذه الجمعيات، وكيف أنها بعملها تنفع الهيئة الاجتماعية، وتقوم بواجب إِنسانى؛ ثم شكر للوزراء والنواب والمندوبين والعلماء الذين أتوا من كل ناحية، للتكاتف على فعل الخير وخدمة العلم؛ وعرض على المؤتمر أن يعين رئيساً لإِدارة أعماله الموسيو پتى أقدم قضاة محكمة النقض والابرام الباريسية، فوافق الجميع على ذلك، وقام هذا الرئيس فشكر الأعضاء على انتخابه، وأخذ يسرد بعبارات فصيحة، حالة جمعيات حماية المحكوم عليهم فى جميع أقطار الأرض، وكيف أن هذه الحركة امتدت فى السنين الأخيرة بفضل اتفاق

الحكومات مع الافراد . ثم قام من بعده وزير الحقانية وقال : « ان الحكومة تقدر مؤتمر اليوم حق قدره ، وتنتظر من ورائهِ الفوائد الجمة ؛ فحماية المحكوم عليهِ تبعث عليها الشفقةُ التى جبل عليها الإنسان ، وقد كانت سبباً لتعديلات كثيرة فى قوانين العقوبات ، كان من أثرها قلة العائدين للجريمة »

وبعد أن تكلم عن الطرق التى تتم بها هذه الحماية ، وذكر أن الحكومة يجب عليها أن تترك الحرية المطلقة لمن يخصصون أنفسهم لهذه الخدمة الجليلة ، ختم قوله بهذه الجملة التى فاه بها رئيس الجمهورية فى حفلة افتتاح المعرض : « أيها السادة ، إن العدل يقتصُّ من الجانى ، ولكنكم تمثلون الشفقة التى تدركه ، ولذلك فانى أرحب بعملكم المبنى على الإخلاص والرحمة »

وفى الساعة الخامسة ونصف مساءً ، خرجنا من قصر المؤتمرات الى المطعم أمامهُ ، فتناول كل منا ما لذ له وطاب ، من طعام وشراب على نفقة المؤتمر ، وانصرفنا على أن نعود ثانى يوم للمناقشة فى الموضوعات المطروحة علينا . وقد تناولت هذه المناقشات نحو الأربعة الأيام . ولا يمكننى أن أذكرها هنا ، حتى ولا بالاختصار ، لأنها تستغرق المجلد بل المجلدات ، وإنما أذكر نتيجتها وهى القرارات التى وقع عليها الاتفاق

وفى يوم الثلاثاء ١٠ يوليو ، بعد ان انتهينا من العمل ، سار بنا وابور مخصوص فى نهر السين ، من قصر المؤتمرات الى سراى المحافظة ، وهناك استقبلنا المجلس البلدى بكل حفاوة واكرام ، وبعد تبادل الخطب وتناول المرطبات ، زرنا السراى جميعها ، فوجدنا فيها من النفائس ودقيق الصناعة ، ما هو جدير بمحافظة باريس . وقد صادف عند خروجنا من المحافظة ، ان دخل الوفد البويرى اليها من باب آخر ، فظن الجمهور المتربص أمام السراى اننا هو ، فهتف يحيينا من كل جهة وبكل لسان ؛ ولكنهُ بعد ذلك تبين اننا وفد علم وسلام ، لا وفد حرب وخصام .

وقد دعى رئيس الجمهورية أعضاء المؤتمر لمقابلته ، فلقوا منهُ كل انس ولطف ، كما دعى وزير العدلية رجال القضاء من أعضاء المؤتمر فى ليلة أعدها لهم ، كانت كلها صفاء وهناء ، وقد أصدر الأوامر لجميع السجون والمحلات العمومية ان تكون مفتحة الأبواب فى وجه أعضاء المؤتمر ، يدخلونها كيف شاؤوا ، متى أبرزوا التذكرة الدالة على اشتراكهم فى المؤتمر

وفى يوم الخميس ١٢ يوليو ، ركبنا نهر السين على وابور مخصوص ، رفعت عليهِ أعلام الدول المشتركة فى المؤتمر ، وبينها علم طرت لرؤيته سروراً ، عند ما رأيت النجمة والهلال يتألقان فى وسطه ، وشكرت

رئيس المؤتمر على حسن عنايته بى ، ووضعهِ علم بلادى بين تلك الأعلام ، مع انى لم اكن مندوباً رسمياً

وبعد أن تناولنا الغداء على ظهر الوابور ، وصلنا بلدة مُنتوشون ، وشاهدنا إصلاحية الأحداث الموجودة فيها ، حيث قابلنا رئيس المجلس البلدى ، واحتفى بنا ، وعفا عن كل مسجون استحق العقاب التأديبي يومها اكراماً لزيارتنا . ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة نانتير ، وهناك قابلنا مدير باريس ، فزرنا معهُ السجن العمومى هناك ، وهو على ثلاثة أقسام : قسم للرجال ، وقسم للنساء ، وقسم للشيوخ الذين ضبطوا وهم يسألون الناس فى الطرقات . وقد رأيت من نظام هذه الإصلاحية وهذا السجن ، ما وقفت له باهتاً من نظافة ، وحسن ترتيب ، وكمال استعداد ، مما يضيق المقام عن ذكره ، ويتمنى الإنسان معهُ أن يرى فى بلاده مثل هذا النظام !

وقد أتم المؤتمر أعماله فى يوم الجمعة ١٣ يوليو ؛ وفى هذه الجلسة قام الرئيس فشكر اعضاء المؤتمر على أعمالهم ، ولا سيما الأجانب منهم ، الذين تكلفوا مشقة الأسفار ، للاشتراك فى هذا العمل الخيرى الجليل . ثم قام من بعده بعض أعضاء المؤتمر ، وأنا من ضمنهم ، فشكرنا الرئيس على الكفاءة التى أدار بها الأعمال ، وعلى حسن تعطّفهِ ومعاملتهِ لنا نحن الأجانب ، مما أطلق ألسنتنا بالثناء

عليهِ ؛ وعلى ذلك أُقفل المؤتمر

وفى مساء هذا اليوم ، اجتمع الأعضاء فى المطعم الصينى بغابة بولونيا ، وتناولوا طعام العشاء ، وتبادلوا خطب الوداد والصداقة ، وانصرف الكل مسرورين مما رأوا وسمعوا وفعلوا

وكان هذا المؤتمر سبباً فى تعرّفى بكثير من الأفاضل والعلماء ؛ وما كاد يختتم جلساته ، الاَّ وهطلت علىَّ الدعوات للاشتراك فى مؤتمرات أُخرى ، ودعانى ناظر المعارف لحضور تمثيل احدى الروايات فى الاوبرا الكبرى ، ودعتنى بلدية باريس للحضور فى احتفال عيد الآداب والمطبوعات ، ومدرسة الحقوق بمناسبة توزيع جوائزها ، فأجبت البعض ، واعتذرت للبعض ، وحمدت المولى الذى ثبت قدمى فى كل الأماكن التى وُجدت فيها ، حتى لا يقال ان المصرى غير قادر على مجاراة غيره فى طرق المدنية والحضارة ؛ وما ذكرت هذه التفاصيل فى رسالتى ، الاَّ لأُبرهن لاخوانى وأبناء جنسى ، اننا متى أردنا واجتهدنا ، وصلنا للغاية التى نريدها ، واننا بما وهبنا الله تعالى لا نخشى ان نجارى غيرنا متى عقدنا العزيمة ، وثبتنا فى طريق التقدُّم والفلاح

قرارات مؤتمر حماية المحكوم عليهم

الباب الأول — القرارات المختصة بالأحداث

المسألة الأُولى

في الحق المخول للاهل في تأديب أولادهم ، وفى الطرق المستعملة لذلك عند الامم المختلفة

يجب الغاء الحق المخوَّل للأهل فى طلب حبس أولادهم

يدخل ضمنَ واجب التربية الذى على الأهل للأولاد حقُّ تعيين محل اقامة الولد ، وإلزامه بعدم مبارحة المدرسة ، أو دار التعليم التى اختاروها لهُ

يجب على الجهة القضائيـة ان تساعد الأهل على واجباتهم ، وعليها — متى طلب منهـا — ان تجرى تحقيقاً ، وتوقع الجزآءات التأديبية ، التى ترى حاجة لتوقيعها

المسألة الثانية

في حماية احداث الاجانب ، وفي التنفيذ الدولى للاحكام الصادرة بشأنهم

ان المؤتمر يدعو الجمعيات الى الاتفاق على كيفيـة حماية أولاد الأجانب المحكوم عليهم ، أو الذين يوجدون فى حالة خطر أدبى ، لاسيما بواسطة ارجاعهم الى بلادهم الأصلية

يجب أن تشمل القوانين المختصة بنزع السلطة الأبوية من الأهل المقصرين فى تربية أولادهم جميع القُصَّر، وطنيين كانوا أو أجانب

انَّ المؤتمر يلتمس من الدوَل أن تَسنّ قوانين مماثلة للقانون الفرنسى، المتعلّق بنزع السلطة الأبوية من الأهل غير الأكفاء، وأن تتَّفق موقتاً على إشعار بعضها البعض بالأحكام التى تصدر من كلٍّ منهنَّ على رعايا الأخرى من هذا القبيل، بحيث اذا صدر حكم بنزع السلطة الأبوية من أحد الآباء لأنهُ غير أهل لها، وجب على الحكومة التى أصدرت محاكمها الحكمَ، أن تعلن بهِ الدولة التى ينتمى اليها المحكوم عليهِ، حتى تتَّخذ الاجراآت القضائية التى تجعل هذا الحكم نافذ الأثَر فى بلادها

انَّ المؤتمر يدعو الدوَل الى أن تختصر المدَّة التى يمكن للقاصر المفرَج عنهُ أن ينال بعدها العفو التام، حتى يتمكن من الحصول على هذا العفو قبل الانتظام فى سلك الجندية؛ ويرجو موقتاً وزراء الحربية فى كل أمة، انهم عند ما يتحقَّقون من حُسن سيرة القاصر السابق الحكم عليهِ، يأمرون بإلحاقه بالفرَق الاعتيادية للجيش، ولا يلحقونهُ بالفرقة الاصلاحية

المسألة الثالثة

في ايقاف تنفيذ العقوبات التأديبية ، في الاصلاحيات المعدة للاحداث

يجب التوسُّع في ايقاف تنفيذ العقوبات التأديبية التي تصدر على أحداث الاصلاحيات ، بحيث لا تنفذ عليهم الاَّ اذا عادوا لارتكاب ذنب جديد في زمنٍ معيَّنٍ

الباب الثاني — في القرارات المختصة بالنساء

المسألة الأولى

ما هي الوظائف التي يمكن للسيدات القيام بها في السجون والاصلاحيات ، سواء كان ذلك من جهة الادارة أو من جهة الحماية ؟

يجب في المحلات المعدَّة لسجن النساء خاصة أن لا تُحرم السيدات قطعياً من إدارتها أو التوظف فيها ؛ وإنَّما يُراعى في ذلك عادات وقوانين كلّ بلد

ولا مانع من تكليف الطبيبات بكلّ ما يتعلق بالقواعد الصحية في تلك المحلات ، ومداواة المسجونات

يجب أن يكون نقل النساء من سجن الى سجن ، أو من بلد الى بلد ، بمعرفة السيدات

يجب أن تكون السجون مفتَّحة الأبواب لدخول السيدات

اللواتى يشتغلنَ برعاية المسجونين

هذه الرعاية يُشترط أن يكون الغرض منهـا : أوّلاً ، تشجيع المحكوم عليهنَّ وتهذيب أخلاقهنَّ . ثانياً ، إعداد ما يلزم لهنَّ عند الإفراج عنهنَّ ، وانتظامهنَّ من جديدٍ فى عداد الهيئة الاجتماعية وللوصول الى هذهِ الغاية لا بدَّ من الاتفاق التامّ بين مستخدمى السجن وزائريه من أعضاء جمعيات الحماية

المسألة الثانية

ما هي الأهمية الواجب اعطاؤها للملاجئ الموقتة التى يلجأ اليها المحكوم عليهن عند الافراج عنهن ، وهل لم يكن خيراً لهن — متى أمكن — أن يبحث لهن قبل خروجهن من السجن عن محل يشتغلن فيه مباشرة متى انتهت مدة العقوبة ؟

رأى المؤتمر

أولاً — أنهُ لا بد من اقامـة المفرج عنهـا ولو بعض أيام فى الملجأ المؤقت ، لتتمكن الجمعية التى تحميها من تعريف من سيستخدمها بها ، أو من عمل طريقة لتصلحها مع أهلها

ثانياً — ان الإقامة فى الملجأ المؤقت على كل حال تفيد المحكوم عليها مادّياً وأدبياً ؛ إذ تقوّم أخلاقها ، وتساعد على إصلاح حالها ، فلا تعود لارتكاب الجرائم والآثام . ويشترط فى هذه الملاجئ أن تكون مرتبة بكيفية تسمح بعزل المقيمين فيها ليلاً عن بعضهم

المسألة الثالثة

في الاتفاق الواجب ابرامه بين البلاد المتاخمة لبعضها ، لتسهيل رجوع المفرج عنهن المأمورات بالخروج الى بلادهن ، وفي حماية أطفالهن

أولاً — يجب على اللجان المركزية المزمع تشكيلها — بناءً على البند الرابع من المسألة الثالثة الواردة في الباب الثالث من هذه القرارات — أن تعين الوكلاء الكافين في كل جهة ، ليحيطوها علماً بالأحوال التي تبعد فيها النسوة عن البلاد بعد الإفراج عنهنّ حتى تتخذنَ الاجراءات اللازمة ، بحيث اذا وصلت المفرج عنها الى الحدود ، وجدت هي أولادها من قبل أهلها ، أو من قبل الجمعيات من يساعدها ويحميها ، ويسهل لها السفر الى حيث تريد

ثانياً — يجب أن تعرف الحكومة لهؤلاء الوكلاء صفة شبيهة بالرسمية ، حتى يمكنهم القيام بما عهد اليهم

ثالثاً — تلصق اعلانات في السجون يعلم منها المسجونون ، ولا سيما النساء اللواتي ستطردهنّ الحكومة بعد الإفراج عنهنّ من بلادها ، أنهُ يمكنهنّ مخابرة اللجان المركزية السابقة الذكر ، حتى يجدن عند بلوغهنّ الحدود من يعولهنّ ويحميهنّ

رابعاً — اذا توسطت احدى الجمعيات في ارجاع مطرودة الى بلدها ، فلها أن تتولى نقل أولادها القصّر اليها

خامساً — يجب إبرام معاهدة دولية لمنع الصعوبات الناشئة فى هذه الحال الأخيرة من الاتفاقيات المعمول بها اليوم ، والتى تمنع الجمعيات من القيام بما يجب عليها

سادساً — قد تتوسط الجمعيات بين المطرودة والحكومة فى عدم تنفيذ قرار الطرد؛ وقد يكون هذا التوسط مبنياً على أن المطرودة اكتسبت جنسية البلد الذى قرّر طردها ؛ ولذلك يحسن تأليف كتاب مشتمل على كل ما يتعلق بأحكام الجنسية فى جميع قوانين الأمم ليتسنى للجمعيات معرفتها

الباب الثالث — القرارات المختصة بالرجال

المسألة الأولى

ما هى الطرق الواجب على الجمعيات اتباعها قبل انتهاء مدة عقوبة المحكوم عليهم لتسهيل الحاقهم بوجوه الاعمال بعد خروجهم ، وانتظامهم في سلك الهيئة الاجتماعية ؟

أولاً — يجب أن يصرح للجمعيات بمقابلة المحبوسين احتياطياً بعد الحصول على اذن من المراجع القضائية ، ويجب أن تشعرَ هذه الجمعيات باسم كل شخص قبض عليه ، حتى يتسنى لها القيام بعملها

ثانياً — يجب على هذه الجمعيات أن تبين للمسجون الطرق التى يمكنهُ سلوكها بعد الافراج عنهُ ، من وضعه فى محل يشتغل فيهِ ،

أو إقامته فى ملجأ ، أو انتظامه فى سلك الجيش ، أو مهاجرته الى بلد آخر تكون سبل المعيشة متوفرة فيهِ

ثالثاً — يجب أيضاً عليها أن تحضر الأوراق اللازمة لانتظام المحكوم عليه فى سلك الجندية ، أو رحيله لبلده ، أو مهاجرته لبلد آخر ؛ ويكون ذلك قبل خروجه من السجن

رابعاً — يجب أيضاً عليها أن تسعى فى الاصلاح بين المحكوم عليهم وأهليهم ، وان تنصح لهؤلاء بأن يمدوا أهلهم بشىء مما يكسبونه

خامساً — يجب أيضاً عليها أن ترسل الى السجن من يستلم المفرج عنه ، والمبالغ التى تجمدت باسمه من عمله وهو مسجون

سادساً — يجب أيضاً عليها أن يكون لها علاقة مستمرة مع المقاولين وشركات العمل والاستخدام ، ليسهل عليها ايجاد المحلات اللازمة للمفرج عنهم عند خروجهم ، كما تستدعيه أميالهم واستعدادهم الشخصى ؛ واذا امكن للمفرَج عنه أن يتزود بالتعليمات التى تعطيها له الجمعية ، ويبحث هو نفسه عن المحل الذى يليق به كان ذلك أولى

سابعاً — يجب أيضاً عليها أن تتخذ الاحتياط الكلى فى اختيار المحلات التى تضع فيها من تحميهم ؛ وعلى هـذا تكون المدة التى يقيمون فيها داخل الملجاء التابع لها مفيـدة جداً لمعرفة أخلاقهم واستعدادهم الشخصى

ثامناً — اذا لم يكن للجمعية ملجأ خاص بها ، فلها أن تعقد اتفاقاً مع جمعية أخرى خيرية ، يكون لها ملجأ يشتغل من به فى عمل من الأعمال ، تشترط فيه قبول من ترسله من المفرج عنهم يعملون به حتى تجد لهم محلاً آخر

المسألة الثانية

ما هي المبادئ التى يجب اتباعها في نظام التربية والتعليم داخل السجون والاصلاحيات ؟

يجب أن يكون التعليم مشتملاً على قسم عظيم من أنواع الرسم اللازم للصناعة ، وعلى معلومات عمومية تنفع العملة على اختلاف مِهَنِهم ، وعلى دروس يقصد بها اصلاح حالهم ، وتكون دائرة على ما يأتى :

١ً — احترام الواجبات ، ولزوم الرابطة الاجتماعية

٢ً — تغلب العقل على الشهوات واللذات ولا سيما المسكرات

٣ً — التعليم الابتدائى لا سيما الخط والقراءة والحساب

٤ً — يكون التعليم افرادياً أو عمومياً كما تستدعيه الظروف

٥ً — مناظرات وشروح تجرى على أيدى أشخاص خارجين عن هيئة المصلحة

ولكي يكون عمال السجون على بينة من الأمر ، فيساعدون

على اتمامه بما عهد فيهم من حب الخير ، يجب أن يرسل لهم ملخص هذه القرارات

يجب أن تكون نتيجة عمل المسجونين تعليمهم صناعة مخصوصة جديدة ، أو اتقان صناعاتهم التى كانوا يشتغلون فيها من قبل ؛ ويراعى فى ذلك الاستعداد الشخصى لكل مسجون مع ملاحظة منشئه ، ان كان من ارباب المدن أو من سكان الارياف

ويجب تطبيق القاعدة بصفة أدق على النساء

اذا وجدت موانع ادارية أو مالية لعدم مراعاة ما تقدم ، فيجب على الأقل تخصيص بضع ساعات فى كل يوم ، ليشتغل بها كل بمهنته الخصوصية ، ولو خارج السجن بقدر ما تسمح به الحالة

ان المؤتمر يرى أن التعليم الدينى لا بُدَّ منهُ ، وأنهُ يجب على الحكومة أن تُسهّلَ على أئِمَّة الدين أداء وظائفهم الدينية داخل السجون المخصَّصة للمحكوم عليهم بِمُدَدٍ طويلةٍ أو غيرهم

فى السجون المخصَّصة للمحكوم عليهم بِمُدَدٍ قصيرة ، يجب أيضاً تعليم الصناعات بقدر ما تسمح بهِ حالة هذه السجون ، والمُدَد المحكوم بها على المسجونين

المسألة الثالثة

في الاتفاق الواجب ابرامه بين الجمعيات المشتغلة بحماية المحكوم عليهم فيما يختص بتوزيع المصروفات التى يستدعيها نقل مواطنيها توزيعاً عادلاً ، وفي الخدمة التى يمكن أن تقوم بها في هذا الموضوع اللجنة الدائمة الدولية لجمعيات الحماية

أوّلاً — يجب على الجمعيّات أن تتّفق فيما بينها ؛ بصفة ودّية على توزيع المصروفات التى يستدعيها نقل المحكوم عليهِ الأجنبى الفقير الى بلده ، وذلك فى كل حالةٍ على حدتها

ثانياً — اذا كانت هذه الأحوال مما يكثر وقوعها بين جمعيّتين مختلفتَى الجنسية ، وَجب عليهما عقد اتّفاق عامّ يسرى فى جميع الأحوال ، ويُراعى فى التخصيص ايراد كلّ منهما ، والعدد النسبى للأشخاص الذين تحملانهم

ثالثاً — يجب على اللجنة الدائمية ان تحرر فى أول كل عام كشفاً باسماء الجمعيات ، وترسل لكل واحدة صورة منهُ ، كى يتسنى لهنّ المخاطبة فى الأحوال التى تستدعى ذلك

رابعاً — يحسن كثيراً ان تألف فى كل بلد لجنة مركزية ، لنقل المحكوم عليهم الأجانب عند الافراج عنهم ، وان تحمى مواطنيها الذين حكم عليهم وطردوا من البلاد الأجنبية

خامساً — يجب على هذه اللجان المركزية أن تتفق فيما بينها على كيفية العمل ، وان توسع فى نطاق الحماية ما أمكنها

سادساً — ان المؤتمر يلتمس من الحكومات ان تنقل الاجانب التى تطردهم من بلادها، بكيفية تسهّل على الجمعيات حمايتهم والاعتناء بشأنهم

معرض باريس العام

لبثت في باريس من ٣٠ يونيو الى ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٠، اختلف كل يوم الى ساحة المعرض، فأطوى فيها الساعات الطوال، فى تصفح ما أخرج اليها العلم من كل عجيبة، ولست أنثنى إلاّ عند ما يدركنى التعب، وتتعذّر رجلاى على اجابة داعى النفس الميالة الى التزيد من الاستفادة والاطلاع. على انى مع كل هذا لم أتمكن من تصفح كل ما نشر فى المعرض؛ بل اكتفيت بالنظرة العامة فى جملة الأشياء؛ ولولا ذلك لاحتاج الأمر الى تناول الأسابيع بل الشهور للإحاطة بما مررت بهِ مروراً، والوقوف على أسرار ما جمع فى المعرض من رائع الصنعة، وبارع الاختراع، وليس ذلك في قدرتى

وليستيقن القارئ من صحة هذا الكلام، أقول انى وأحد الاخوان الفضلاء، عمدنا ذات يوم الى زيارة أحد القصور المشيدة فى ميدان الانفليد، وهو المخصص للأثاث والحلى ونحوها، فقضينا فيهِ يوماً كاملاً حتى حسبنا أننا لم ندع فيهِ صغيرة ولا كبيرة إلاّ

أحصيناها، حتى اذا جزنا فيهِ من القسم النمساوى بمحل تباع فيهِ الأحجار الكريمة، اتفقنا على أن نعاود كرة أخرى قبل مبارحتنا باريس لابتياع شئ منها، فلما رجعنا درنا فى طلب هذا المحل ثلاث ساعات فلم نعثر عليهِ، وكنا نجد أثناء مسيرنا غرفاً كثيرة لم تقع أعيننا عليها أول مرّة فتأمل. وهذا قصر واحد، والمعرض تقع مساحته فى مائة هكتار، وفيهِ العشرات من أمثال ذاك القصر، دع ما دونه من الأبنية التى لا تبلغ هذا الموضع من الأهمية

وهو يمتد على شاطئ نهر السين ويوصل بين شطريه جملة كبارى أهمها كبرى اسكندر الثانى الذى أسسه الفرنسيون بمناسبة تحالفهم مع الروسيا، وتأنقوا فيهِ حتى صار أجمل قنطرة فى العالم على ما أظن، فعلى الضفة اليمنى، تجد السرايات المعدة للرسوم والنقوش، يليها شارع باريس القديمة، فسراى المؤتمرات، فمعارض المستعمرات، والمعرض المصرى، فسراى التروكادرو. وعلى الضفة اليسرى من النهر، تجد القصور التى شُيِّدت فى ميدان الأنفليد لعرض أثاث المنازل وما يتعلق بالحلى والزينة، فشارع الأمم، وفيهِ أُقيمت معارض الدول، فقصر الصحة، فالحرب، فالغابات والأحراش، ثم ميدان مارس أو اله الحرب، وبهِ برج ايفل الشهير، تحيط بهِ القصور التى أُعدت لما يختص بالتعليم، فآلات النقل، فالمطابع

ونحوها ، ثم الماكينات ، وخلفها سراى الزراعة ، يتقدَّمها سراى الكهربائية ، وقصر الماء ، وعلى يمينها سراى المنسوجات ، يتخلل كل ذلك المطاعم والقهوات ومحلاَّت اللهو والطرب

وانى لا أتعرَّض لوصف هذه الأماكن بالتفصيل ، لأن وصفها يستغرق المجلدات ؛ وحسبك برهانًا على ذلك ان بعض الدول طبعت فهرساً مفصَّلاً لمعروضاتها فى عشرات من الأجزاء ، فقس على ذلك ما يستلزمه وصف المعرض كله من مئات من المجلدات ، وعندى ان شخصاً واحداً لا يمكنهُ وصف جميع ما يقع فى المعرض ، مهما كانت قوته ومعارفه ، ولا يقوم بهذا العمل الاَّ جمعية يدخل فيها الكاتب ، والأثري ، والمهندس ، والطبيب ، وهلمَّ جرًّا ، حتى يتسنى لها وصفهُ وصفاً مفيداً ، اللهمَّ الاَّ اذا كان الغرض هو الحصول على فكرة عامة منهُ ، وقد سبقنى الى ذلك كثير من كتَّابنا الأفاضل

والزائر للمعرض ، يختلف تأثّره باختلاف الوجهة التى صوَّب اليها فكره ؛ ولما كنت ممن يتأثَّرون بالمعنويات اكثر من الماديات ، كنت دائماً موجّهاً نظري الى المقارنة بين أحوال الأُمم وبعضها ، متأملاً فيما يطوف بهذه القصور والعمارات من المقاصد التى أوجدتها ، وكنت أجرّد منها روحاً تناجينى وأناجيها ، وأعرض عليها ما يعنّ لى من الاسئلة فتجيبنى عنها بأوضح العبارات

ولما انتهيت من شهود المعرض ، عمدت الى العجلة الكبيرة وهى عبارة عن دائرة عظيمة ، معلّق بها صناديق أشبه بعربات السكة الحديد ، الاَّ انها أصغر منها تدار بحركة البخار ، فترتفع تلك الصناديق براكبيها حتى منتهى الارتفاع ، ثم تهبط بهم الى الأرض ، فركبتها فارتفعت رويداً رويداً ، وكلما ارتفعت ظهرت أمامى قباب المعرض وامتدت لعينى مبانى باريس ، ولما بلغت أقصى نقطة وقفت فأخذت اتأمل فى هذا المنظر الذى انبسط أمامى ، وكان الجوّ صافياً ، والهواء عليلاً ، فرأيت برج ايفل ورأسه فى السحاب ، يخفق عليها العلم الفرنسى ولسان حاله يقول « انى وان كنت غريباً فى هذا المعرض ، الاَّ انى لم أزل أبسط نظرى على جميع أكنافه ، شاهد عدل على ان هذا العصر عصر الحديد ، اذ بهِ قوام المعرض وهو منهُ بمنزلة الهيكل العظمى من الحيوان ، وما روحهُ الاَّ الكهرباء ، فهى التى تدير جميع ما فيهِ من دواليب وآلات ، وهى التى تجعل ليله نهاراً »

ثم أصغيت ، فاذا صوتان يتحاوران ، وقد لجَّا فى المقال ، وأمعنَا فى الجدال ، واكثرا من الحجاج واللجاج ، وإيراد الاحتجاج بعد الاحتجاج ؛ فاستمعت عليهما حتى علمت من فحوى تحاورهما ، أن أحدهما لروح المعرض ، تدافع عنهُ التهم التى تلقيها عليهِ روح باريس ،

فوعيت ما دار، وانى ناقله الى القارئ — بقدر ما تسمح الذاكرة —

قالت روح باريس :

« مالى أرى مجازاتى وطرقى، وقد سدت فى وجوه السابلة، وشواطئ نهرى، وقد حرمت على المتنزهين ؟

أهذه حسنة المعرض الذى يخلونهُ فوائد لا أدركها، وفضائل لا أستريح الى الاعتراف بها ؟

وما شأن تلك البَنِيَّات التى لم يلاحظ فيها إلاَّ التأثير فى نفس المتفرّج، دون ملاحظة القواعد الهندسية، والمناسبات العلمية — هذا من الجهة المادية

أما من الوجهة الاجتماعية، فانى أرى كثيراً من الناس يتوهمون أن هذا المعرض سيدخل عليهم بالكسب الكثير، والربح الوفير، فاذا أخطأهم الحظ، ولم يدركوا بغيتهم، أخذ فيهم القنوط، واستولى عليهم اليأس، ودفعهم ذلك الى ما لا تحمد غايته

وأما من الوجهة الأدبية، فان المعرض يجمع اليهِ كل أسباب اللهو والفساد، بما يزيد الأخلاق ضعفاً، والأنفس انخذالاً

فان قيل إنهُ يزيد فى ثروتى، فلا ننسى أنهُ أيضاً يزيد فى فقر البلاد الأخرى، وماذا يجدى فرنسا اذا اغتنت عاصمتها بفقر قراها؛ كل ذلك فضلاً عما يأتى بهِ المعرض من وجوه المتاعب،

وتعويد من وافقه الحظ ، وأسعدهُ الجد على زيادة الانفاق ، والتزيد مما لاحاجة بهِ من فنون الكماليَّات ، حتى اذا ما انقطعت هذه المادة ، ونضب معين التكسب بذهاب المعرض ، أخذت عليهِ منافذ الرجاء ، وسدت فى وجهه سبل العيش ، مات بالحسرة ، أو عاش متسخطاً على الزمان ، متبرماً بحوادث الأيام ؛ وقد كان راضياً بعيشته ، شاكراً لمولاه أنعمه »

« وحسبك أن المعرض قد استاق الىَّ العمالَ من جميع الآفاق رغبة فى الكسب ، وتطلعاً الى الربح ، فكيف اذا أصبحوا ولا يجدون بين أيديهم عملاً يبلغون بهِ أرزاقهم ، أليس اذا عضهم الجوع بنابه ، وثقل عليهم حمل الحياة على الخلة والطوى ، انشعبوا بالضرورة فى ارجائى ، يطابون أقواتهم على شفار المدى ، وتسللوا الى كل خبيئةٍ مما ذخر العاملون فيها أعلاقهم وكرائم أموالهم ، فعبثوا بنظامى ، وأزعجوا راحة سكانى ، فما كان أغنانى عن كل ذلك »

وزد على هذا ما يكون من احتشاد الناس فى المعارض ، وافساد الجو بما يضعف بهِ شأن الحالة الصحية »

« وهل المعارض إلاَّ عبارة عن الأسواق والموالد التى كانت تقام فى بعض البلدان ، فى سالف الأزمان ، ولا تزال الى الآن فى بعض البلاد الشرقية ، والأقطار القصية ؛ وقد كانت سهولة المواصلات سبباً

فى ابطالها، وعن قريب تمضى المعارض على آثارها، فهى ذاهبة غير دائمة، ولا خير فى عمل لا يدوم »

« فان قيل إن فائدة المعارض لا تجحد فى بعث الأذهان على توليد المخترعات، والافتنان فى اتقان ضروب المصنوعات، قلت وأى أثر يكون لذلك اذا كانت الأسواق التى تتصرف فيها هذه السلع ضيقة، وكانت الأمم على هذا التبارى والمكاثرة بما تخرجه كل منها. ولا يذهب عنك أن اليابان وهى أحدثهنّ فى باب الحضارة عهداً، قد أصبحت تستغنى بما تصنعه من العروض والأقمشة ونحوها، ثم تسعى الى أن تبيع غيرها ما فضل من ذاك عن حاجتها »

« فاذا دام التناحر على هذه الحال، فهناك الطامة الكبرى، والبلية العظمى، حيث تسل السيوف وتشرع القنا، لسبب ظاهره رد الشرف أو تقرير الحضارة، وباطنه حب المال والمزاحمة التجارية والمنافسة المالية؛ فبئس ما كانوا يصنعون »

« كل أولئك عدا ما يلقيه المعرض من وجوه العقبات فى سبيل السياسة الفرنسية، حتى جعلها تهمل كثيرًا من المسائل المهمة سعياً وراء اتمامه وانجاحه » اه

فاجابتها روح المعرض، وهى تمزق غيظاً مما سمعت: «حقاً انى

لفى غاية العجب مما سمعت ، وخصوصاً منكِ أيتها الصديقة ، فعوضاً عن أن تشكرينى على الخدم الجليلة التى قمت بها نحوكِ ، أراكِ تشهرين بى وتلومينى ، فهلاَّ فخرتِ بوجود هـذا المؤتمر العام لجميع الدول فى ربوعكِ ، وقد نسيَت ما بينها من الضغائن ، وتجاوزت عماَّ فى نفوسها من المطامع ، وأتت تحتفل بهذا العيد العظيم ، عيد العمل والمثابرة على الجدّ والنشاط ؛ فما ألطف هذا المنظر وما أحلاه ، أمم اختلفت ألوانهم وأديانهم ، وسهلت لهم سرعة المواصلات هـذا الاجتماع ، وكلٌّ بكِ معجب ، فكأن الدنيا قد حملت اليكِ عادات أهلها وأخلاقهم على اختلافها ، وصنائعهم على تنوُّعها ، فكم فى ذلك من فائدة للمتأمل ، ودرس للمتعلّم ، ومجال للعالم والصانع والمخترع ؛ فضلاً عما استفاده العمَّال الذين اشتغلوا فى المعرض من الفوائد ، والحركة التجارية التى كان هو سببها غير مدافع »

«وأما عن ازدحام الأسواق بالبضائع والمصنوعات ، ودفع الأُمم الى المزاحمة فى الاستمار ، فهذه سنة الخليقة من عهد أن وجد العالم ، وتفرَّقت الشعوب ؛ وقد قضى ناموس الطبيعـة بخضوع الضعيف لسلطة القوى ، وتخطّى المتوحشين درجات التمدن والحضارة ؛ فليس للمعرض ذنب فى ذلك ؛ بل ذاك أدعى لتوثيق روابط الاخاء بين الدول ، وعوامل التضامن بين الأُمم ، لأنهُ سبب لتعارفها ببعضها ،

فمتى استمكن التعارف ، حمل على التآلف ، ومن جهل شيئاً عاداه»

« ولا يخفى ان المعارض قديمة العهد عند اليونان والعرب ، ولم تزل موجودة للآن لما فيها من سموّ المقاصد ، وحمل الناس على الاجتهاد فى البحث والعمل ، للوصول الى الغاية التى ينتهى اليها العقل ، ويقف عندها الادراك ، سعياً وراء سعادة الأُمة ، وتقدُّم العمران ؛ فهى مفيدة من جميع الوجوه ، لأنها تزيد فى الثروة ، وتحقق راحة الانسان بما ينشأ عنها من استنهاض الهمم الى الاختراعات المفيدة ، والمبتكرات الفريدة » اهـ

وفيما هما يتنازعان ، وكلٌّ يجِدُّ فى تأييد زعمه بالبرهان ، واذا بصوت جهورى قد دخل بينهما لفصل الخلاف بصفة نهائية لا تقبل النقض ، ولا تحتمل الرد ، فتشوَّقتُ لمعرفة أسباب حكمه ، لاسيما بعد أن علمت انهُ لروح العلم العام ، واذا بهِ يقول : « قد أصاب كلٌّ منكما بعض الاصابة ، وان تطرَّف فى رأيهِ ولم يقف عند حد الاعتدال ، فالمعارض كغيرها من الأمور الدنيوية ، ليست خيراً محضاً ، ولا شرًّا محضاً ، وخيرها اكثر من شرّها اذا روعيت فيها بعض الشروط ، كمنع ما يكون مخلاًّ بالآداب ، وجعلها خاصة مرة بالزراعة ، وأُخرى بفرع من فروع الصناعة ، فيقل الازدحام ، ويمكن للمشتغلين بما فيها من المعروضات أن يدرسوها بكل طمأنينة

وسكون ، مع مراعاة عدم الإكثار منها ، وتكرارها فى أزمنة متقاربة ، لأن التقدُّم بطىء ، ولا خير فى معرض ليس فيهِ جديد »

« ولا بأس من ايراد بعض الملحوظات على ما احتجَّ بهِ كلٌّ منكما ، فالمعارض لا تزيد فى الثروة ، ولكنها تنقلها من مكان الى مكان ، ومن جيب الى آخر . وأما ما قيل من انها تساعد على توثيق العلائق بين الدول ، فهذا أمر ظاهرى ليس الاَّ ، فاذا مرت بشارع الأُمم ، ورأيت قصور الدول يُجاور بعضها بعضاً ، حسبتهم جميعاً وقلوبهم شتى ، فاذا قرأت بعين الفكر ما هو مسطور على هذه المبانى من المنافسة والأطماع ، وحب الاستئثار بالمنفعة والنكاية بالغير ، لم تغترّ بظاهر الأمر ، ووقفت على سر المسألة .

ولا مشاحة فى ان المعرض مع كثرة زوّاره ، وشدة الحركة التى تحدث عنهُ ، يزيد فى ثروة الفرنسيين على العموم ، والباريسيين على الخصوص ، لاسيما أصحاب الفنادق ، والنوادى العمومية ، والمطاعم وغيرهم ؛ ولا تنسَ ما يدخل على الحكومة من عوائد الجمارك ، ولا ما تربحه الشركات من أجر النقل فى السكك الحديدية ، والسفن ونحوها ؛ ولكن العارضين أنفسهم وهم أولى الناس بالكسب ، لأنهم هم الذين تكبّدوا المشاق ، وبذلوا النفيس من المال ، طمعاً فى اثناء ثروتهم ، قلَّ أن ينالوا ما يرغبون ، بل منهم عدد عظيم لا تسمح لهم

الظروف باسترداد المال الذى صرفوه ، فالمعرض من هـذه الوجهة الاقتصادية عمل غير محمود »

ولما أتمت روح العلم مقالها ، رضخ الخصمان لحكمها ، وسكنا الى رأيها ، وتفرّقوا والساعة التاسعة ، فأطلقت أسلاك الكهرباء ، ما أجنت فى جوفها من الأضواء ، فنشرت على كل مكان من البهاء بردا ، وقلدته من اللألآء عقداً

وبرز للعين قصر الأنوار ، وكله من البلور الملوّن جدراناً وسقفاً ، وسلماً وعمداً ، تضربهُ أشعة الكهرباء من جميع جهاته ، فيتألق فى جميع الألوان ، بما ينهب العين ويفتن الجنان ؛ فكأنما حسبت نجوم السماء أن المعرض قد أوفى على ليلة عرسه ، فنقطته من بينها بسهيل حتى يتشاكل فيهِ السنا والسناء ، وتجتمع عنده زينة الأرض بزينة السماء

ورأيت قصر الكهرباء مكللاً بتاج من نور ، وأمامهُ قصر يتدفق منهُ الماء على هيئة شلالات ، تراها بيضاء ، فاذا هى حمراء ، فاذا هى زرقاء ، ألوان تدهش الناظرين ، وتسر الشاهدين

ثم رأيت عن بعد سراى الحرب ، وبجوارها سراى الصحة ، تناقضٌ بين ونفاق ظاهر ، ففى هذه يسعى الإنسان الى تخفيف آلام أخيه بواسطة الأدوية والعقاقير ، والاحتياطات الصحية ،

والعمليات الجراحية ؛ وفى تلك يتحفز وراء قتل اخوانه فى الإنسانية شر قتلة ، فيخترع لذلك ما يمليه عليه شيطانه من ضروب المدافع والبنادق ، وأصناف الكلل والرصاص وغيرها من آلات الدمار ، مما يؤيد بهِ كلمة دولته ، سواء كان الحق من صفها أم لم يكن

وبينما كنت غريقاً فى بحر هذه الأفكار ، كانت العجلة سائرة فتارة كنت أرى العربة التى تحملنى على بعد عظيم من الأرض ، وتارة أراها تكاد تمسّها ، وتارة أراها واقفة لا تتحرّك ، وما هى إلاّ مثال صغير للدنيا ترفع قوماً وتخفض آخرين ، وطوراً ترفع من خفضت ، وتخفض من رفعت ، وهذا شأنها من قديم . ولما فارقت العجلة نزلت للتنزه فى ميدان مارس بالقرب من برج ايفل ، وكان الازدحام شديداً ؛ ثم رأيت الناس يهرعون الى جهة التروكادرو ، وسمعت طبولاً ومزامير شرقية ، فصرت لأنظر ما الخبر ، واذا أنا بمنظر قد بكيت له حزناً ؛ وكيف لا أبكى وقد شاهدت رجالاً من جميع المستعمرات الفرنسية ، من عربى وسودانى ، وهندي وصينى ، تحيط بهم الجنود الفرنسية ، وهم منتظمون على شكل موكب ، منهم الفارس والراجل ، وكلهم بملابسهم الشرقية ، تكتنفهم الأعلام والبيارق ، تتقدمهم رموز بلادهم من هياكل وأهلّة ونحوها ، وهم فرحون غير مستشعرين بما فى هذا الموكب من ثقيل الذل وشديد العار

وقد بعثنى هذا المنظر المحزن على التفكير فى تأخر الشرق وانحطاطه الى هذه الدرجة التى نراهُ عليها اليوم، لا سيما وانى كنت أرى من أول المعرض الى آخره حقيقة ظاهرة، وهى تسلط الغرب على الشرق، فى كل بقعة وكل قطر، وتأخر الشرقى عن الغربى مهما كانت ديانته، ومهما كان الجوّ الذى يعيش فيهِ؛ ويكفيك دليلاً على ذلك معارض المستعمرات وكلها للغربيين، والمقارنة بين معروضات الشرقيين والغربيين. فالغربيون إنما يعرضون أسلحتهم، وصناعتهم، وطرق تعليمهم؛ وأمَّا الشرقيون، فيعرضون راقصات متهتكات، فمقاومة الشرق للغربى هى بنسبة مقاومة آلات الطرب والعبث لكلل المدافع، فلا بدع اذا كان هذا سلاحنا وسلاحهم ان تغلبوا علينا فى كل مكان

وقد نسب قوم تأخر الشرقيين الى دينهم، ورموا الديانة الاسلامية خصوصاً بهذه الوصمة زوراً، ونسوا أو تجاهلوا ما كان عليهِ المسلمون من القوَّة والمنعة والعز، أيام كان الدين بينهم قوياً منيعاً عزيزاً. ولعلَّ الذين يقولون هذا القول معذورون لما يرونهُ من حالة المسلمين اليوم، وما هم عليهِ من الاستكانة والميل الى الكسل، وسوء فهم دينهم، والاعتقاد الباطل من أنهُ يحثهم على الاتكال بلا عمل، وذلك كله ببركة الجهلاء الذين رقوا منبر الوعظ أو التعليم، فدفعوا الأمة الى بلوغ

هذه الغاية التى وصلت اليها ؛ فالأجنبي معذور ان رمى الدين بما يراه سائداً من هذه التعاليم بين أهله ، وان كان الدين من ذلك كله براء . فمن لنا بعلماء يرشدون الناس الى صحيح دينهم ، ويفهمونهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

ولعله لم يصل بنا الى هذا الموضع ، ولم ينحرف بعلمائنا وخطبائنا عن الجادة الاَّ استبداد الحكَّام . وان أغلب البلاد الاسلامية بلاد زراعية ، يميل أهلها الى السكون والصبر على المظالم ، فاذا كان الحاكم من الأخيار عمل خيراً كثيراً ، وان كان من الأشرار عمل شرًّا كثيرًا ، لعدم وجود المقاومة فى الحالتين ؛ فاذا كان الاستبداد قاعدة حكومة يبس عود العلم فيها ، واشتغلت النفوس باتقاء شرّها ، مقدّمة ذلك على كل شيء سواه ، فيعم الجهل ، وتتراكم الظلمات ، فيفقد معها كل احساس شريف . فاستبداد الحاكم هو أس كل بلية ، فاذا زال نشطت النفوس ، وعمل كلٌّ بجد وعزيمة لاطمئنانه على نفسهِ ، وعلمه انهُ يعمل لنفسه . ومتى حسنت حال الأفراد صلح حال الأمة ، ومشت فى سبيل التقدُّم والفلاح . انظر ما كانت عليهِ حالة اليابان منذ خمسين سنة ، وما هى عليهِ الآن ، وهى أُمة شرقية . تأمل فى معروضاتها ، تجدها زاحمت الأُوروبيين فى كل

الصنائع ، حتى فى التصوير ؛ وما ذلك الاَّ لأن حكومتها اتحدت مع أهلها على ترقية البلاد ، فحصلت على ما تشتهى ، وأدهشت جميع العالم بسرعة نجاحها . فلعل الروح الذى نفخ فيها يزورنا ، فنهبّ من هذا الرقاد الطويل . وعلى كل حال ، فأملنا فى المستقبل عظيم ، وشعور الشرقيين بما هم عليه من التأخر ، من أهم الأسباب التى تقوى هذا الأمل ، وتبعث فينا روح العمل

لم يبقَ علىّ الاّ ذكر بعض الشىء عن المعرض المصرى ، وقد كتب عنه كثير من الأفاضل ، لاثمين الشركة التى أقامته على عرضها مايشين المصريين من رقص قبيح ، وتركها بعض السفلة يتزيون بزى العلماء ، وغير ذلك من الأمور التى تزرى بنا عند الأجانب ، وتنقص من أقدارنا فى أعينهم

وأذكر أن الاقتصادى الشهير الموسيو جيد ، دعانى لتناول الطعام عنده فى يوم ١٤ يوليو ، وهو يوم عيد الجمهورية ، فوجدت عنده كثيراً من علماء الاقتصاد السياسى ، وبعد ما رفع الطعام ، أخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقال لى أحدهم وأسمه المسيو دى بواف ، عند ما علم أنى أسكن القاهرة : أصحيح أن القاهرة مدينة فاسدة الأخلاق ؟ فعجبت لذلك ، وأجبته كلاَّ ! بل ان مثلها مثل كل عاصمة من العواصم ، لا تخلو من مواطن للهو والفجور ،

ولكنها أقل من عواصم أوربا فساداً ، واكثر منها وقاراً ، فاستغرب هو الآخر من هذا الجواب ، فسألته هل زرت المعرض المصرى ، فقال نعم ، فقلت له ، اذاً فهمت سبب سؤالك وسرّ استغرابك ، فتبسم ضاحكاً ، وانتقلنا الى حديث آخر بعد ان أجهدت نفسى فى ايراد الأدلة والبراهين ، على أن ما رآه هناك لا يمثل مصر والمصريين ، الاّ فى الأُمور التى تمجها أذواق عقلائهم ، ولا يحفل بها الاّ رعاعهم

ولكن ليس الذنب كله فى ذلك على الشركة ، وهى لا تكاد تكون مصرية الاّ بالاسم ، لا يهمها الاّ كسب الدرهم والدينار ، سواءٌ ظهرت مصر بأعمالها فى مظهر يسىء أو يسر ، فطرقت الباب الذى كانت تتنسم من خلاله ريح الربح ، فساء فألها ، وخسرت خسارة كبيرة

أليس الذنب كل الذنب على سراة المصريين ، وأعاظم تجارهم الذين لم يغاروا على بلدهم ، وعندما علموا أن الحكومة قد تخلت عن المشاركة فى المعرض ، لم يجتمعوا لتمثيل وطنهم أمام العالم بصورة يرضونها له . وعندى أن الضرر الذى يلحق بالوطن من اقامة معرض غير لائق به ، أشد من كتابة الجرائد فى ذمه المقالات الطنانة ، وطعن أفصح الخطباء فيه بالخطب الرنّانة ، فالقائمون بمثل هذا

العمل يتحملون مسؤولية كبرى ، ولا بد من مراقبتهم المراقبة الدقيقة ، حتى لا يمثلوا بالبلاد شرّ تمثيل ، ولا يشهروها أسوأ تشهير ، والسلام

وصف مدينة فيشي و بعض ضواحيها

قمتُ من باريس عملاً باشارة الأطباء ، فوصلت الى فيشي في يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٠ ، وهي تبعد عن باريس بنحو الخمس الساعات بالاكسبريس ، فألفيتها مدينة زهراء ، قد جمعت فيها أسباب الراحة ووسائل النزهة ، وأُلبست حلة من البهاء والجمال ، استعداداً لزائريها العديدين . وهي واقعة على ارتفاع ٢٦٤ متراً عن سطح البحر ، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٢٣٣٠ ، ولكنها في فصل الاستحمام (من ١٥ مايو لغاية ٣٠ سبتمبر) يبلغ عدد من يؤمها من الأجانب نحو الثمانين ألفاً ، ولذلك تجد فيها من الفنادق الواسعة ، والنزل الفاخرة عدداً عظيماً ، لشهرة مياهها المعدنية من قديم الزمان ، حتى كان الرومانيون يستعملونها ، ويسمونها المياه الحارة ، ولكنها لم تشتهر كثيراً ، ولا يعرفها الخاصّ والعام الاَّ من عهد نابوليون الثالث امبراطور فرنسا ، فانهُ تردد عليها ، وأقام في ربوعها ، ووجَّه الأنظار اليها ، وحوَّل الأفكار عن غيرها ، وذاك شأن الناس ، تراهم يميلون الى ما ترمي اليهِ أنظار عظمائهم ، ويهرولون الى ما تسعى اليهِ ملوكهم ،

ولذلك كانت مسؤولية الرؤساء كبيرة ، لأنهم بكيفية سيرهم يدفعون بالامم إما الى طريق الفلاح والسلامة ، أو الى طريق الدمار والندامة

وأهم عمارات ڤيشى ، بناء المحطة ، فالمستشفى الحربى ، وكنيسة مارى لويس ، والنادى الدولى ، والكازينو ، ومحل الحمامات ، ومركز البلدية . وأما الحدائق ، فأهمها البستان الجديد ، الذى جُدّد فى عهد نابوليون الثالث على شاطئ نهر الاليه (Allier) ، والبستان القديم ، وهو ملتقى جموع المتنزهين ، والمستطبين ، وبستان سيليستان وغيرها »

ومما امتازت بهِ ڤيشى ، ميدان سباق الخيل ، على مقربة منها ، وأهمية الجوائز التى توزع على من يحرز قصب السبق فيهِ ، وقد حضرت يوماً سباقاً نال فيهِ جواد للبارون دى روتشلد جائزة قدرها ١٠٠٠٠ جنيه ، فكان ذلك مصداقاً لقول العامة « ان المال يجلب بعضه بعضاً

هذا وينابيع المياه عديدة ، منها ما هو ملك للحكومة ؛ كينبوع المستشفى (Hôpital) ، وينبوع سيليستان وهو بارد ؛ وينبوع السيدات (Mes Dames) ويكثر فيهِ الحديد ؛ وينبوع الجرند جريل (Grande-Grille) ، وتبلغ حرارة مائه ٤٤ درجة ، وينبوع شومل (Chomel) ، وهو أشد حرارة منهُ . ومنهـا ما هو ملك للأفراد :

كينبوع (لوكا) ، وينبوع (لاربو) ، وينبوع (لاردى) ، وينبوع (سان يور) (Saint-Yorre) وغيرها وهذه الينابيع مباحة للعموم ، يشرب منها كل من أراد

وهذه المياه تنفع بالشرب ، أو المضمضة ، أو الاستحمام ، على حسب الظروف واختلاف الأمراض وتركيبها كلها متقارب ؛ اذ هى عبارة عن صودا ، وبوتاسا ، ومنيزيا ، وجير ؛ وهى تقريباً الاجزاء التى يتكوَّن منها دم الانسان ، وأكثر تأثيرها فى أمراض المعدة ، والكبد ، والأمعاء ، والضعف ، وعسر الهضم ، واليرقان

ومما يزيد فى بهجة ڤيشى ، ويحبب الى الانسان الاقامة فيها ، جمال الجبال والقرى التى تحيط بها ، وتكتنفها من جميع الجهات ، والطرق الممهدة للوصول الى كل نقطة منها ؛ ومن هذه القرى ، قرية كوسيه (Cusset) ، وفيها مياه معدنية كثيرة ، وحاجر سانت أمان (Saint-Amand) ، وفى طريقه كنيسة برسم مارى جرجس ، وله فيها تمثال ممتطٍ جواداً ، فاذا رغبت احدى بنات تلك الجهة أن تتزوج ، وأبطأ عليها الخاطب ، عمدت الى ذيل جواد القديس ، ونزعت منهُ شعرة ، معتقدة ان ذلك مما يدعو الى نيلها ما تشتهى وتتمنى ، وهكذا فانهُ مهما بلغ الانسان من التمدن ، فان الخرافات القديمة ، والاعتقادات الفاسدة ، تتغلب عليه فى بعض

الاحيان ، فيلبي طلبها ، غير مستشعر بسخافة عمله ، وسوء ماهو صانع

ويوجد أيضاً على مقربة من ڤيشى قصر قديم ، مبنى فى الأعصر المتوسطة ، يملكه الآن الكونت دى بوربون بوسيه ، وهو على شكل قلعة منيعة ، يدل المتأمل فيهِ على ما كانت عليهِ هذه البلاد فى تلك الأزمنة الخالية من قلّة الأمن وشدة الظلم والاستبداد ، مما عملت على ازالته أفكار العلماء ، وأقلام الكتّاب ، وسيوف الأبطال

ثم ڤيس (Vesse) ، وهى قرية صغيرة ، وبها ينبوع لا يفيض ماؤه فى اليوم والليلة الاّ ثلاث مرات ، يلبث فى كل مرة ساعة من الزمن بترتيب منتظم ؛ فاذا جاء ميعاد ظهوره ، رأيت الماء وقد نبع من فوهته ، ثم أخذ فى الارتفاع شيئاً فشيئاً ، حتى يبلغ نحو الخمسة الأمتار ؛ ثم يهبط رويداً رويداً حتى يغيض ، وكانهُ ولا ماء ، فسبحان الخلاّق العظيم

وهنالك أيضاً محل يسمى اردوازيير (Ardoisièrs) ، كان يستخرج منهُ الحجر الأسود المسمى بالاردواز ، يصل اليهِ الانسان من طريق جبلية ، تكتنفها الاشجار من الجانبين ، وهى تارة فى صعود ، وأُخرى فى هبوط ، يمتد منها النظر الى الوديان والآكام على بُعد شاسع ، وتغيُّر مستمر فى المناظر والأشكال ، مما يشرح الصدر ، وينعش القلب . وقد قيل لنا ان هنالك شلالاً جميل الشكل ، فاتجهنا

نحوه ومعنا الدليل ، فوقف بنا أمام نهير صغير ، ليس بهِ من الماء الاَّ ما يستتر القدم ، وبهِ حجارة تعترض سير مياهه ، فأشار الى هذه الحجارة وهو يقول : هذا هو الشلال ، ولكن الماء الآن قليل ، فضحكنا ولكن على غير الدليل ، واكتفينا من الشلال ، بتصوُّره فى الخيال

والمتأمل فى ڤيشى وما اتسق فيها من أسباب الراحة لكل وافد عليها ، يرى الفرق بين بلديتها وشبه البلديات فى بعض مدننا ، كحلوان مثلاً؛ ويعلم كيف يشتغل المشتغلون ، ويعمل العاملون لارتقاء البلاد وسيرها فى طريق التقدم والمدنية ، فلا تمضى سنة الاَّ ويتبعها اصلاح جديد ، مما يُرَغِّبُ الناس فى الإقبال عليها ، ويزيد فى ثروة الأفراد والحكومة معاً

ولكنى لاحظتُ على ڤيشى أمرين منتقدَين ، يظهر أنهُ لا تخلو منهما مدينة من مدن الحمَّامات بأوروبا . أمَّا الأمر الأوَّل ، فهو كثرة البغايا الى حدٍّ لا يتصوَّرهُ العقل ، فترى الطرُق مشحونة بالمتنزّهات منهنَّ وكلٌّ ترمى شباكها لتصيد فريسة ، وإن كانت الآداب الظاهرية محفوظة ، حتى لا يمضى فصل الاستحمام ، وإن شئتَ فَقُلْ زمن الموسم ، إلاَّ وقد جمعتْ ما يلزمها فى بقيَّة عامها . والأمر الثانى ، هو انتشار المقامرة بصفة رسمية حتى لا يكاد يخلو

منها محلّ عمومى . ولا يخفى أن كل ذلك مفسدٌ للاخلاق ، ولكن الافرنج تعوّدوا هـذا الأمر فصار عندهم مألوفاً لا تمجُّهُ أذواقهم ، بل تطلبهُ أنفسهم ، ولذلك لم تمنعهُ البلدية خوفاً من تغيير خواطر السياح ، واستكمالاً لأسباب البهجة والسرور

كلرمون (Clermont) و (رويا) — ولما كنت فى قيشى ، دعانى أحـد أصحابى الفرنسيين الى الشخوص معه الى كلرمون ، لزيارة أخ له هناك ، فركبنا القطار حتى وصلنا اليها بعد ساعاتٍ قليلة ، حيث تلقّانا أخوه واكرم وفادتنا ، شأن الفرنسيين فى مقابلاتهم ومعاملاتهم ، فقضينا الليل ، وفى الصباح طفنا بالمدينة ، فوجدتها ليست بالكبيرة ، بهـا من السكان ٤٣٠٠٠ ، وهي قاعدة مديرية (بوى دى دوم) (Puy de Dome) ، اسم جبل قريب منها ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٤٠٠ متر عن سطح البحر ، وهي مركز أحد الجيوش الفرنسية ، وبها كثير من المدارس العالية ، والكنائس الضخمة ؛ ولاسيما كنيستها الكبرى التى بنيت فى سنة ١٢٤٨ ميلادية

ومن أحسن العمارات التى بها ، قصر المديرية ، والدور العتيقة التى حُفظ لها شكلها القديم ، وفسقية (امبرواز) ، وهي فى غاية الرشاقة والجمال ، وتمثال بسكال المهندس المشهور ، والكاتب الطائر

الصيت ، مخترع عربة اليد والمكبس المائى ؛ وتمثال (ديزيه) أحد القوّاد الذين رافقوا نابليون الأول فى حملته على مصر ، وطارد المماليك فى الصعيد ؛ وقد شاهدت فيها بقايا سور ضخم يسمونهُ حائط العرب ، يظهر انهُ كان بُنى ليصد هجمات هؤلاء الأبطال عن المدينة ، وتذكَّرت انها كانت محل اجتماع المؤتمر الدينى الذى تقررت فيهِ الاغارة على القدس ، ونودى فيهِ باعلان الحرب الصليبية ، فقلت «يا لكِ من بلد قد جمعت بين أطراف التاريخ قديمه وحديثه» ، وكنت أرى الحيطان كلها سمراء ، تكاد تكون من لون الصخر ، مما تنقبض منهُ النفس ؛ وعلمت ان سبب ذلك انها مشيَّدة من أحجار بركانية ، يكثر وجودها فى تلك الجهة

وتكثر العيون فى كليرمون وضواحيها ، وكلها حديدية مع شىء من الحمض الكربونى ، وهي نافعة لضعف الدم ، وداء الخنازير ؛ وأهمها عيون (رويا) ، وهي على بُعد عشرين دقيقة من كليرمون بالترامواى الكهربائى ، وبها فنادق عظيمة يقصدها المرضى من كل ناحية ، ولكنها أقل أهمية من ڤيشى بكثير ؛ وأغربها عين سنت أليير وهي عين تلقى فيها الأشياء على اختلاف أنواعها ، من حيوان وفاكهة وغيرها ، وتترك مدة معينة ، فتتحجر مع حفظها لشكلها الطبيعى ، ويخالها الانسان كأنها صُنعت من حجر ، وقد رأيت

هناك بقرة وتبِيعَها (ابنها الصغير) ، كأنهما تمثال منحوت ، وطيوراً في أوكارها والبيض من تحتها ، وكل ذلك قد تحجَّر ، فلم أمنع نفسي من اقتناء بعض هذه النفائس ، فسبحان الذي منح كل شيء خاصة ، سبحانه هو الخلاَّق العظيم

ثم استأذنت صديقي وشقيقه شاكراً ، وعدت الى فيشي لاتمام علاجي ، حتى اذا ما انقضى الزمن المعيَّن للعلاج وهو ثلاثة أسابيع ، وجدت في نفسي نشاطاً ، وفي صحتي تقدُّماً ، فركبت الوابور ميمماً بلاد سويسرا للتمتع بهوائها العليل ، ومناظرها الجميلة ؛ وكان أحد أصدقائي الأفاضل ينتظرني في مدينة جنيف التي بلغتها بعد سفر تسع ساعات تقريباً ، وعزمت على الاقامة فيها أسبوعاً

بعض ايام في سويسرا

جنيف — زرت جنيف مرة في سنة ١٨٩٩ ، وأُخرى في سنة ١٩٠٠ ، فسررت من الاقامة فيها ، لما اختصت بهِ من جمال الوضع الطبيعي وحسن المنظر ، وهي واقعة على ارتفاع ٣٧٥ مترًا عن سطح البحر ، يسكنها نحو ٨٦٥٣٥ نفساً ، يكثر بينهم الاغنياء ، حيث يوجد فيها ٢١٦ تزيد ثروتهم عن مليون من الفرنكات ، وهي قائمة على الشاطئ الجنوبي من البحيرة المسماة باسمها ، حيث يخرج نهر

الرون ويقسمها الى قسمين ، وقد نشأ فيها رجال اشتهروا بسمو الفكر ، وقوة التأثير ، نخص بالذكر ، من بينهم (روسّو) الذى وُلد فيها سنة ١٧١٢ ، وكانت أفكاره السياسية والفلسفية من اكبر العوامل التى حركت الثورة الفرنسية الكبرى ، و (كلڤان) أحد مؤسسى الديانة البروتستانية الذى توفى فيها سنة ١٥٦٤

وقد تغير على هذه المدينة من الحوادث التاريخيـة والتقلبات السياسية ما يضيق المقام عن استقصائهِ ؛ وآخر حوادثها انضمامها الى فرنسا فى سنة ١٧٨٩ ، ثم انفصالها عنها والتحاقها بسويسرا سنة ١٨١٤ ؛ وهى كما قدمنا منقسمة الى قسمين يجمع بينهما ست قناطر ، أهمها قنطرة الجبل الأبيض ، ويبلغ طولها ٢٦٠ متراً وعرضها ١٦ متراً ، وعلى مقربة منها جزيرة معروفة باسم روسو الفيلسوف الشهير ، وبها تمثاله جالساً على كرسى تحيط بهِ الكتب ؛ وأما شواطىء النهر فقد أقيمت عليها الأرصفة الجميلة ، ويرى الانسان وهو يتنزه فوقها فى حالة الصحو سلسلة الجبل الأبيض البالغ ارتفاعه ٤٨١٠ امتار

وأهم ما فى المدينة من الآثار تمثال برنزويك ، وهو دوق توفى فيهـا سنة ١٨٧٣ بعد ان وهب لها ماله وقدره عشرون مليوناً من الفرنكات ؛ والكرسال ، وهو محل للتمثيل ؛ وسراى البوستة ، والتمثال الوطنى ، وهو رمز لانضمام جنيف الى سويسرا فى سنة ١٨١٤ ؛

والجنينة الانكليزية بما فيها من القهوات والمطاعم والتماثيل ؛ ثم النوفرة القائمة على مقربة منها ، ويبلغ ارتفاع الماء المتدفق من فوهتها ٣٥ متراً ، وهى على مقربة من متنزه أُو ڤيف (المياه المنعشة) وبهِ عين معدنية ، وعدَّة قهوات ويكثر فيه سماع الموسيقى ؛ ثمَّ الكنيسة الكبرى المشيَّدة فى سنة ١٠٢٤ ؛ ودار الحكومة ؛ ودار السلاح ؛ وحديقة النبات ؛ ودار العلوم ، وبها نحو سبعين أستاذاً وخمسماية طالب ؛ ودار الكتب ، وبها مائة وثلاثون ألف مجلد و ١٨ ألف كتاب مخطوط ؛ ثم متحف التاريخ الطبيعى ؛ ودار التمثيل ، ووجهتها على غاية من الرشاقة واللطف ؛ ومتحف راث ، وهو قائد روسى توفى فى المدينة بعد ان وهبها جميع ما اقتناه من النفائس ؛ ثم محل توليد القوَّة المحركة ، وهو عبارة عن مجموع آلات تدور بحركة مياه النهر فتُخرج الى المدينة ما يكفيها من الماء ، وتعطى أرباب المصانع قوَّة يديرون بها آلاتهم بأجر زهيد

وأما ضواحى جنيف فمشهورة بجمالها وسهولة الوصول اليها ، سواء كان ذلك بالسكك الحديدية ، أو المراكب البخارية ، أو العربات العمومية ، أو المركبات الخصوصية

وقد زرتُ من بينها متحف أريانا وقد جمعت فيهِ أشياء كثيرة كتماثيل وتصاوير ونحوها ، وهو هبة من أحد المؤلفين للمدينة ،

وبالقرب منهُ قصر البارون روتشلد المشيد ؛ ثم قصر ڤلتير الفيلسوف الطائر الصيت . وعلى بُعد خمس وعشرين دقيقة من المدينة زرتُ ڤريبه ، وعلى مدى ثلاثين دقيقة منها جبل (السالف) ويبلغ ارتفاعه ١٣٤ متراً ، وكلاهما مصيف يكثر فيه الأجانب من جميع الأقطار ؛ ولكن أحسن رياضة يمكن الانسان التمتع بها هو أن يركب احدى السفن البخارية التى تقوم من جنيف طائفة فى بحيرتها ، واقفة على أهم المدن التى ترتفع على شواطئها ، وهذه البحيرة بصفاء مائها ، وعليل نسيمها ، وجمال مناظرها ، كانت فى كل وقت موضوعاً لتغزل الشعراء ، ووصف الكتاب ، ويبلغ طولها نحو الاثنين وسبعين كيلومتراً ، وأكبر عمق فيها ٣٠٩ أمتار ، ومسطحها نحو مائة وثلاثين ألف فدان

وأهم المدن التى وقفت عليها فيها (أوشى) ، وهى الميناء التى يصل منها الانسان الى لوزان . وأما لوزان ، فهى مدينة بها من السكان فوق الاثنين وأربعين ألفاً ، مشيَّدة فى الجبل ، ولذلك تجد طرقها فى هبوط وصعود ، تتصل ببعضها بقناطر أو انفاق ، وأهم ما فيها دار علومها ، وكنيستها الكبرى ، والقصر ، والمتحف ، ودار الكتب ، وقصر المحكمة . ثم منتريه ، وهى عبارة عن شارع طويل ، ينتهى الى قصر قديم ، مرتفع على صخرة تلتطم بها أمواج البحيرة ،

لا يصل الانسان الى بابه الاَّ على قنطرة متحركة بالسلاسل ، وهو مكوّن من طبقتين ، لا يكاد النور يدخل فى السفلى منهما التى كانت معدة لسجن المجرمين السياسيين ؛ ويرى الانسان فى جدرانها الحلقات التى كانت تربط بها السلاسل ، تغل بها أعناقهم، ويجانب منها محل المشنقة ، وبها طاقة مطلة على البحيرة ، كانت تقذف منهـا جثث المشنوقين ؛ وقد قرأت على العمد أسماء زوار كثيرين مروا قبلى في هـذا المكان ، وبينهم اسم بيرون الشاعر الانكليزى المشهور ، وفكتور هيجو الشاعر الفرنسى صاحب الكتابات العالية، والتخيلات العجيبة ، وهذا القصر المخيف ، عنوان الاستبداد والظلم ، يسمى قصر شيون

ثم اڤيان ، وبها نحو الثمانية وعشرين ألف نفس من السكان ، وهى مشيَّدة على منحدر ، تعلو منازلها بعضهـا كالدرج ، وبها نزل كبير، ومحل للتمثيل ، يكثر فيها السيَّاح للانتفاع بمياهها البيكربونانية

هذا وأهل چنيف تقرب أخلاقهم من أخلاق الفرنسيين في لين العريكة ، ولطف المعاشرة ، الاَّ أنهم يمتازون عن جيرانهم بالدعة والسكون ، وكلهم أهل عمل وجد ، يكثر بينهم التجار والصناع ، وقد امتازوا على غيرهم بصناعة الساعات ، وبعض المجوهرات

ونظراً لتردد الأجانب على بلادهم ، وكثرة ما يربحونه أثناء اقامتهم بين ظهرانيهم ، تراهم محافظين على احترامهم ، ساعين فى راحتهم . ومما لاحظته أيضاً ، محافظة أهل هذه البلاد على تخليد ذكر من أحسن اليهم ، وتعطير تاريخه ، والثناء عليه ، شأن الأمة المهذبة ، التى تعرف الجميل وتقدره قدره ، وربما كان ذلك هو السبب فى كثرة المتبرعين بأموالهم لمدنهم ، مما يبعث على الدهش والأعجاب ويا للأسف من كل شرقى يعلم ما هنالك

والأخلاق التى ذكرناها عن أهل جنيف ، تنطبق على جميع سكان سويسرا ، الاَّ أن أهل القسم الشمالى أقل ليناً ، وأكثر شدة فى الأخلاق عن غيرهم

برن — ثم قمت من جنيف ، ومعى بعض الاخوان الأفاضل ، قاصداً برن عن طريق السكة الحديدية ، فبلغتها بعد مسير نحو الثلاث الساعات فى قطار قد جمع بين السرعة والنظافة ، كما هو الغالب فى جميع قطارات سويسرا ؛ وكانت الأمطار يومها تهطل بكثرة ، مع اننا كنا فى أواخر شهر أوغسطس . وبعد أن استرحنا قليلاً بالمنزل ، خرجنا نطوف فى المدينة ، فوجدناها أقل جمالاً وأهمية من جنيف ، ويظهر انها حافظت على شكلها القديم ، فانك ترى منازلها مغطاة بالرسوم المتنوعة من الخارج ، ومنتهية من أعلاها بجفت

كالمنازل التى شيّدت بمصر فى عهد المغفور له محمد على باشا ، وترى فى أسفلها المقاصير ذوات العمد الضخمة ، تكثر فى شوارعها فساقى المياه القديمة العهد ، وتقل فيها المخازن العظيمة ، وتستتر فيها القهوات داخل البيوت أو أسفل العمارات

وبرن ، وهى عاصمة سويسرا من سنة ١٨٤٨ ، بها نحو السبعة والخمسين ألفاً من السكان ، وأهم ما فيها من العمارات أو المحلات العمومية : دار العلوم ؛ ومكتب اتحاد البوستة العام ؛ وبرج الساعة ، وهو باب قديم لسور المدينة عليهِ ساعة عظيمة ، فاذا حان الوقت صاح ديك ، ثم خرج قطيع من الدببة ومرَّ بين يدى رجل جالس ، والدب هو رمز المدينة واسمها مشتقٌّ من اسمهِ بالألمانية ، ولذلك تجده مرسوماً أو منحوتاً على أبواب منازلها ومخازنها ؛ ثم دار المحافظة وهى من بناء القرن الخامس عشر ؛ ثم بئر الدببة وفيهِ تُطعم هذه الحيوانات على نفقة المدينة ؛ والكنيسة ويبلغ ارتفاع منارتها مائة متر ، وبجوارها مسطح يبلغ ارتفاعه ٣٥ متراً ، يمتدّ منهُ النظر الى بُعدٍ شاسع ؛ ثمَّ المتحف التاريخى وقصر الحكومة ، وهُما على غايةٍ من الأبهة والجمال ؛ ومتنزَّه كلين شنز ؛ ومتنزه شنزلى ؛ ويرى الانسان منهما الجبال عن بُعد وبعضها يرتفع الى عنان السماء ؛ ثمَّ متحف الفنون الجميلة ، وبهِ تصاوير لكثير من السويسريين ، بينها صورة شيخ عربى جليل ،

ورسم شارع من شوارع القاهرة ، ورسم قبور الخلفاء فى مصر ؛ ثم متحف التاريخ الطبيعى

هذا ويفصل بين المدينة وضواحيها نهر الآر الذى يعلوه كثير من القناطر ، وأهمها قنطرة كيرشنغله وهى من حديد يبلغ فتحة كل قوس من قوسيها ٨٧ متراً على ارتفاع ٣٥ متراً من سطح الأرض

وعلى ذكر القناطر أذكر أنه من الأمور الغريبة التى شاهدتها فى برن الفرق العظيم الموجود بين ميزانية شوارعها ، فترى البيت الواحد على شارعين متوازيين ، فالدور الأول منهُ والثانى يصل اليهما الانسان من الشارع الأسفل ، والدور الثالث يصل اليهِ الانسان مباشرة من الشارع الأعلى بواسطة قنطرة تعلو الشارع الأول ، فلا يتجشم سكانه الصعود درجات كثيرة

اللغة السائدة فى برن هى الألمانيـة ؛ لذلك كنا نجد صعوبات كثيرة فى التخاطب مع أهلها . خرجنا ليلاً للتنزُّه وتمضية الوقت فلم نجد لا قهوة ولا محلاً يمكننا الجلوس اليه ، وكلما قابلنا انساناً سألناه فيجيبنا بالألمانيـة ، الى أن عثرنا فى آخر أمرنا ببائع تبغ فدلَّنا على محل نجلس فيهِ ، قال أنهُ مُعَدٌّ لمعتبرى القوم ؛ فاعتمدناه ، فاذا بهِ قهوة تحت الأرض يصل اليها الانسان من سُلَّم كثير الدرجات ، فضاقت نفوسنا منها وتوجَّهنا الى النزل فنمنا فيهِ . وفى الصباح ركبنا القطار

الى تون فبلغناها بعد أربعين دقيقة ، وهى قرية يسكنها نحو الستة آلاف نفس، وبها مدرسة الحكومة الحربية وقصر عتيق ؛ ومنها ركبنا سفينة بخارية الى أنتيرلكن ، فسارت بنا تشقّ عباب بحيرة تون البالغ مسطحها ٤٨ كيلومتراً ، وكنا نمتّع الطرف بما يعلو شواطئها من المبانى الشاهقة ، والغابات الخضراء ، والجبال المغطاة بالأشجار والثلوج ، والجسور القديمة التى بقيت شاهداً على استبداد وظلم الأعصر الخالية ؛ وقد وصلنا أنتيرلكن بعد سير ساعتين ونصف من هذا السفر اللطيف

وأما أنتيرلكن فهى من أجمل البلاد التى زُرتها فى سويسرا ، بها من السكان نحو ٥٣٠٠ نسمة ، وهى واقعة بين بحيرة تون وبحيرة برينس ، بها كثير من السياح للطف هوائها ، واعتدال جوّها ، وزخرف نزلها ، وحُسن مناظرها ؛ فاذا سار الانسان فى أهم شارع فيها ، وهو شارع الجوز ، رأى الجبال تحيط به من كل مكان ، بعضها قد تغطّى بحلة خضراء ، وبعضها قد كساه الثلج حلة بيضاء ، والآخر قد ناطح السحب فتقطّعت عليهِ بشكل يبهر الناظر ؛ وقد علا هذه الجبالَ جبلُ (ينجفرو) فارتفع عنها بقمته الى السماء ، كأنهُ رئيسها كلها أو المقدّم عليها ، فسبحان الخلاّق العظيم

وبعد أن أمضينا يوماً وليلة بأنتيرلكن ، سافرنا منها فى سفينة

بخارية الى برينس فبلغناها بعد ساعة قطعنا فيها بحيرتها البالغ مسطحها نحو ستة آلاف الفدان؛ وهى ليست بالبلد المهمة ، وعدد تكثر فيها صناعة الخشب التى امتازت بها سويسرا عن غيرها من الأقطار . ثم قُمنا منها عن طريق السكة الحديدية قاصدين لوسرن ، فوصلنا اليها فى نحو الأربع الساعات

لوسرن — هى من أجمل وأهم مدن سويسرا ، بها من السكان نحو ٢٦٥٠٠ ، وهى واقعة على بحيرة كتركانتون (الأربعة الأقسام) ، حيث يخرج نهر الروس المشهور بسرعة الحركة واخضرار الماء . وقد أمضينا بها أياماً كانت من أحسن أيامنا فى سويسرا : هواء جميل ، وطقس معتدل ، ومنظر حسن . والمدينة مشيدة على شاطىء النهر ، تجمع بينها أربع قناطر ، وتمتد عليها أرصفة على غاية من النظافة والاتقان ، لا سيما رصيفى شويزيرهوف ، وناسيونال ، وقد غرست فيهما الأشجار ، وأشرفت عليهما الفنادق الفاخرة والعمارات الشاهقة ، وامتد النظر منهما الى الجبال العظيمة التى تكتنف المدينة ، لا سيما جبل پيلات ، وجبل ريجى

وأما أهم آثار لوسرن فنخص بالذكر منها : كنيسة سان ليچيه ، وأسد لوسرن الذى نحت فى الصخر على طول تسعة أمتار ، تخليداً لذكرى الضباط والعسكر السويسريين الذين قتلوا سنة ١٧٩٢

وهم يدافعون عن قصر التويلرى الذى كان بهِ ملك فرنسا بباريس ؛ وقد مثّل الأسد مطعوناً برمح ، وهو يعالج سكرات الموت ، ويدافع عن درع عليهِ رمز ملك فرنسا

وبجوار هذا الأثر حديقة كبيرة ، قد جمعت فيها أشياء كثيرة ، تدل المتأمل على كيفية تكوين الجبال والصخور ، ونحو ذلك من الفوائد العلمية ؛ ثم دار المحافظة ، وبها متحف تاريخى ؛ ثم المتحف العام ، ودار الكتب ؛ فمتنزه الجوتش الذى يبلغ ارتفاعه ٥٢٥ متراً ، ويصل اليهِ الانسان فى عربات معلقة بالسلاسل على قضبان مرتكزة على منحدر ، بحيث انهُ عند ما ترتفع احداهما تنخفض الأُخرى

والسائر فى شوارع لوسرن ، يرى بها كثيراً من البيوت العتيقة التى بنيت فى القرن السادس عشر ، وحافظ القوم عليها الى هذا اليوم لفائدة تاريخية . وقد يندر فى لوسرن وغيرها من مدن سويسرا ، ما عدا جنيف ، وجود قهوات مستقلة عن الفنادق ، بل ان أغلبها تابع لهذه المحلات ، وقائم فى داخلها

ولما كنا فى لوسرن عزمنا على صعود جبل الريجى ، فركبنا سفينة وسرنا فى بحيرة الأربعة كنتون من لوسرن لقرية ڤزنو ؛ وهذه البحيرة زرقاء اللون ، يبلغ مسطحها نحو الأربعة وعشرين ألف فدان ، وهى كثيرة التعاريج ، قصيرة العرض ، يكثر فيها

هبوب الريح الشديدة ، وشواطئها خضراء ، ترتفع عليها القصور والبيوت ، تعلوها الجبال الشامخة ، ولا سيما جبل البيلات ، وهو مجرَّد عن الأشجار ؛ وجبل الريجى ، وهو على عكسه ؛ وتحيط بها مدن كثيرة ، بين منازلها ما هو من الخشب على الشكل الذى ألفه أهل هذه البلاد واتقنوا صنعهُ

وصلنا الى ڤرنو بعد مسيرة ساعة ، ومنها ركبنا قطاراً خاصاً يصعد منها الى جبل الريجي ؛ وهذا القطار مركَّب من آلة بخارية وعربة واحدة تسع ستين شخصاً ، ويصعد على قضيبين ، بينهما قضيب ثالث ذو أسنان ، تترادف عليها ثنايا الترس المركَّب فى القطار فتمسكه عن التقهقر . وانحدار الخط عظيم جداً ، حتى انه فى بعض النقط يصل الى ٢٥ درجة ، ويجوز على قناطر يبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو المائة متر الى أن يصل الى قمة الجبل ، وهى المعروفة بريجى كولم على ارتفاع ١٨٠٠ متر بعد أن يمر على عدة محطات بها فنادق كثيرة للمصيف . وهذا الجبل مغطى بالأشجار ، تكثر فيه المراعى والأبقار الثمينة ، وقد علقت فى رقابها الاجراس لئلاَّ تضلّ ، فتهدى اليها الراعى

وكلما كان القطار يرتفع ، كانت المناظر تتغيَّر أمام أعيننا ، ولكن بعد ان صعدنا الى ألف متر اشتدَّ البرد علينا . ولما انتهينا

الى قمة الجبل تغيَّر الجوّ، وتغطى الجبل بالسحاب، حتى صرنا لا يرى بعضنا بعضاً على مسافة قريبة، وأحاطت بنا السحب، واشتدت الرطوبة، واينما وجهنا نظرنا لا نرى الاَّ بخاراً أبيض؛ فنزلنا بعد ان كتبنا بعض رقاع لاخواننا بمصر، وضعناها فى بوستة الجبل؛ وأثناء نزولنا اعتدل الجوّ، وأشرقت الشمس خلف الجبل، فكان منظرها من أحسن ما يرى؛ فتارة كانت تنفض على قسم من البحيرة لوناً فضياً، وتارة تلونه بلون ذهبى، أو تتخلل الغابات، فتنبعث عنها الأشعة على أشكال غريبة

ثم ركبنا السفينة عائدين الى لوسرن وقد مالت الغزالة للغروب، فكست الجبال حلة ذهبية، ثم غابت خلفها حتى لم يبقَ منها الاَّ ما هو شبه الهلال، ثم النقطة الصغيرة التى اختفت، ولم يبقَ بعد الاَّ شفقٌ احمرُ، يقابله من الجهة الاخرى سحاب أسود. وكان الركاب على اختلاف نحلهم ومللهم ينظرون صامتين الى هذا المنظر العجيب، سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير، الى ان بلغنا لوسرن

ثم ركبنا القطار من لوسرن قاصدين زوريخ، فوصلنا اليها بعد ساعتين فى السكة الحديدية، وهى بلدة كبيرة بها ١٥٨٠٠٠ ساكن، وهى واقعة على شاطئ نهر لمَّات، على مقربة من البحيرة المسماة باسمها، وبها مدارس عظيمة، ومحلاَّت كثيرة للصناعة، وخصوصاً

صناعة الحرير والقطن والآلات ، وبها ترامواى كهربائى يمر فى أغلب شوارعها ؛ وصلناها والأمطار تهطل ، ولكن ما لبثت الغيوم ان انقشعت ، وصفا الجوّ ، فتمتعنا برؤية آثارها ، وجميل منظرها بين الجبال . وأحسن ما يهم السائح زيارته فيها ، الفسقية القائمة بميدان المحطة ، ثم شارع المحطة وفيهِ البورصة ، والمخازن التجارية العظيمة ، والمصارف الكبرى ، وكنيسة مارى بولس ، وبها ساعة كهربائية طول عقاربها نحو الخمسة الأمتار ؛ ثم رصيف الألب ، ومنهُ يتمتع الانسان بمنظر جميل ، ثم التونهال ، وهو بناء شاهق خصص للتمثيل وسماع الموسيقى ، وبهِ يسع ١٥٠٠ متفرج ، ثم قنطرة الرصيف ، وقنطرة الكنيسة ، ودار الكتب وبها ١٣٠٠٠٠ مجلد و ٥٠٠٠ كتاب مخطوط ومكاتيب لمشاهير الناس ؛ ثم متحف العاديات ، والكنيسة الكبرى بزخرفها ، والمتنزه العالى ، ومنهُ يمتد النظر الى بُعد شاسع ؛ ثم دار العلوم وبجوارها المهندسخانة ، وبها ١٠٧ اساتذة و ٨٠٠ تلميذ ؛ ثم المتحف الأهلى ، ودار السلاح ، فحديقة النبات

وبعد ان استرحنا بهذه المدينة العامرة ، ركبنا القطار الى شفهوز ، فوصلنا اليها بعد ساعة ، وهى مدينة صغيرة بها ١٤٣٠٠ ساكن ، وبها كنيسة قديمة ، وقصر معروف بقصر مونو ، شُيِّد فى

القرن السادس عشر ، وهو أشبه بقلعة حاكمة على البلد ، يصل اليهِ الانسان من سلّم بهِ درجات عديدة ، ويبلغ سمك حيطانه خمسة أمتار ، وأما قبابه فبنيت بطريقة لا يؤثر فيها جل المدافع . وقد وجدنا بهِ سيدة تدل الناس على أسراره ، ولكنها تتكلّم بالالمانية ، فشكرناها . وان لم نكن فهمناها . ثم ركبنا عربة أوصلتنا الى نزل شويرزهوف ، وهو على مرتفع مطلّ على نهر الران ، فقضينا الليل فيهِ لمشاهدة الشلال

شلال الران — هو أعظم شلال فى اوروبا ، حيث يبلغ ارتفاعه ٣٥ مترًا فى عرض ١١٥ ، يتقدمه قنطرة طولها ١٩٢ مترًا ، ويكتنفه من الشمال قصر لوفن ، ومن اليمين قصر ورت ؛ وماؤه يتدفق من بين الصخور بسرعة هائلة ، فيعلوه الزبد ، ويسمع له صوت عظيم ، وقد سُلّط عليهِ من النزل الذى كنا فيهِ أشعة ملوّنة ، فكان الماء يبدو تارة أحمر قانياً ، وأُخرى أزرق ، وهلمّ جرًّا ، وكذلك القصر الذى بجواره مما يدهش الناظرين . وبعد ان زرنا الشلال مرة أُخرى نهاراً رجعنا الى لوسرن ، ومن هناك ركبنا القطار قاصدين ايطاليا عن طريق سان جوتار

طريق سان جوتار — أُنشئت هذه السكة الحديدية الجبلية بين سنة ١٨٧٢ وسنة ١٨٩٦ ، وبلغ ما أُنفق عليها نحو العشرة

الملايين من الجنيهات — وهى خط لطيف ، عرباته كلها من الدرجة الأُولى ، مفروشة بالقطيفة ، وفيهِ ما يلزم للانسان من مأكل ونحوه ، يسير فيهِ الراكب متمتعاً بالمناظر الجميلة ، يشاهد جبالاً مرتفعة يتلوها وديان منخفضة ، فجبال خضراء ، تسيل منها عيون بيضاء ، تتكوَّن منها بحيرات وشلالات ؛ ثم يمر القطار على قناطر فيدخل فى قلب الجبل ، ثم يخرج فيسطع نور الشمس عليهِ بعد احتجابه

وأقصى ارتفاع لهذا الخط ١١٥٤ متراً عن سطح البحر ، وبهِ ٧٩ نفقاً فى الجبل ، يبلغ مجموع طولها ٤٦ كيلو متراً ، بينها نفق كبير طوله وحده ١٤٩٩٨ متراً ، يقطعه الاكسبريس فى ١٦ دقيقة ، ارتفاعه سبعة أمتار فى عرض ٨ أمتار ، وكله مبنى ، يستشعر الانسان وهو فى جوفه أنه فى عالم آخر ، ويحس ببرد شديد ؛ وقد اشتغل فيهِ ٢٥٠٠ عامل مدة سبع سنوات ونصف حتى أتموه

ولما اقتربنا من الحدود الايطالية ، ابتدأنا نتألم من حرارة الجو ، وأسفنا على فراق أرض سويسرا ، هـذه البلاد التى وهبها الخالق جمالاً فائقاً ، وجاذبية مخصوصة ، فهى أولى البلاد بالتغزل والتشبب ، وأجدرهنَّ بأن تكون وطناً للشعراء

ولما انتهينا الى الحدود ، حضر عمال الجمرك الايطالى لتفتيش متاعنا فى القطار ، فرأينا منهم من اللطف عكس ما كنا نسمعهُ

عنهم، فحمدنا المولى على ذلك، وأخذنا نتأمل فى حقول شمال ايطاليا، واذا هى أشبه شىء بأرضنا المصرية من حيث اتساع الوادى، ونوع الزراعة، وكيفية توزيع الرى، والترع والمصارف، وشكل البناء، ووجود الذرة والكروم، مرتفعة على « التكاعيب » وغير ذلك، فكان لذلك تأثير عظيم فى نفوسنا، مما حرك فى قلوبنا عوامل الشوق الى مشاهدة الوطن

وقد مررنا فى طريقنا على مونزا، وهى بلدة صغيرة، بها نحو ١٨٥٠٠ ساكن، وبها قصر ملوكي، وهى التى قتل بها ملك ايطاليا السابق. ثم وقف بنا القطار على محطة ميلان، فنزلنا بها بعد مسير ست ساعات من لوسرن، وعزمنا على الاستراحة فيها ثلاثة أيام

نزهة فى ايتاليا

ميلان هى مدينة من أهم مدن ايتاليا وأغناها، بها ٤٢٦٠٠٠ ساكن، وتكثر فيها صناعة الحرير، وأهلها يحبون التكلم باللغة الفرنسية، ويميلون الى تقليد أهل باريس فى أخلاقهم وآدابهم، وربما كانوا أرق سكان ايتاليا جميعاً

وهذه المدينة بها آثار كثيرة، وعمارات شائقة، نذكر منها ميدان الدوم، وبه تمثال فيكتور عمانوئيل ملك إيتاليا الاسبق،

وتطل عليهِ الكنيسة الكبرى، وهى من اكبر كنائس الدنيا، حيث يبلغ مسطحها ١١٧٠٠ متر مربَّع، وكلها من الرخام الأبيض، يحيط بها ٩٨ برجاً، و ٢٠٠٠ تمثال من المرمر؛ وقد استغرق بناؤها نحو الخمسماية سنة، ويبلغ ارتفاع منارتها ١٠٨ أمتار، ويرى الانسان فى داخلها تماثيل وصوراً كثيرة، وهى أبدع معبد رأيتهُ

ثم على الميدان نفسه قصر الملك، وقد لاحظت أن له تقريباً فى كلّ مدينة قصراً؛ وعمارة فيكتور عمانوئيل، وهى عبارة عن بناء ضخم، قد شيد باتقان وزخرف، جمعت فيهِ أهم المخازن والقهوات العمومية، يخترقه شارع طوله ١٩٥ متراً، فى عرض ١٥ مفروش كله بالرخام، ومغطى بالزجاج على ارتفاع ٢٦ متراً. ويبلغ عدد الكنائس فى ميلان ثمانين كنيسة، ولكن أهمها الكنيسة الكبرى التى ذكرناها

ومن الآثار التى تهم رؤيتها دار الكتب، وبها ٣٠٠,٠٠٠ مجلد والف كتاب مخطوط، عدا الرسوم والأوسمة العديدة؛ ثم المتحف العام، ومتحف بلدى، والمستشفى، وهو من أعظم مستشفيات الدنيا، ودار الكتب المعروفة بامبروزينى التى أسسها برومیه سنة ١٦٠٩، ووضع فيها ١٦٠٠٠ مجلد، و ١٥٠٠٠ كتاب مخطوط، وتصاوير بديعة. ثم القصر، وكان لعائلة فيسكونت قديماً، وهو الآن

معدّ لاقامة العساكر ، وقوس نصر سمبلون وهو من بناء نابليون الأول، والمحل المعد لألعاب الحيوانات ، وهو أيضاً من بنائه يسع ٣٠٠٠٠ متفرج ، وبه رسوم يراها الانسان فيحسبها لدقة صنعها نقوشاً بارزة فى الجدران . ثم الحدائق العمومية ، فالمقبرة الأثرية وهى ممتدة على مسطح مائة فدان ، وبها كثير من القبور المزخرفة ، وكثيراً ما ترى رسم الميت منقوشاً فوق قبره ، ومنحوتاً فى الحجر والرخام ، وأمامهُ صورة أو تمثال بنته أو زوجته أو ولده ، يبكون عليهِ وينتحبون وهم لا يزالون على قيد الحياة؛ وبهذه المقبرة فرن معدّ لإحراق الموتى ، تختلف مدة الحريق فيهِ من أربعين دقيقة الى ساعتين بنسبة الاجرة التى يدفعها أهل الميت ؛ فان هم أشفقوا عليهِ ، احتدمت ناره فاحترق سريعاً ، وإلاَّ فرويداً رويداً . وقد وقف أحد الأغنياء مبلغ ١٥٠٠٠٠ فرنك لإحراق موتى الفقراء مجاناً احتساباً لوجه الله ، فسبحان من وهب كل انسان عقلاً يرشده

وكان وصولنا الى ميلان فى اليوم الثانى لصدور الحكم على قاتل الملك بالحبس المؤبد بحيث لا يرى انساناً ، ولا يكلم آدمياً ؛ وهو عقاب صارم ، استبدلت به ايتاليا عقوبة الاعدام التى حذفتها من قوانينها ، وقلّ ان يمكث الجانى فى هذا الحبس سبع سنوات دون أن يموت أو يجن ؛ وقد قضى أخيراً قاتل الملك على نفسه فانتحر .

وكان البائعون ينادون فى الطرق على رسوم الملك المقتول وزوجته، والملك الجديد وقرينتـه ، ونحو ذلك من الأشياء المتعلقة بالحادث الذى ما زال حيًا فى النفوس

وقد زرنا ايضاً تياترو سكالا المشهور وبه تماثيل الموسيقيين المشهورين ، بينها تمثال ڤردى الذى مات قريباً ، وهو محل متسع مبنى على قواعد هندسية ، بحيث يسمع فيه الصوت واضحاً من كل مكان ، وقد توفرت فيه أسباب الراحة للمتفرجين ، فترى خلف كل مقصورة مقاعد للاستراحة ، وماء وخلافه مما يحتاج اليه الانسان

وقد لاحظت أن أغلب التعامل هو بالعملة الورق ، وهى منخفضة القيمة لكثرة ما صدر منها ، بحيث ان الورقة الفرنسية ذات المائة الفرنك تساوى ١٠٧ فرنكات من الورق الايتالى . وأما المعيشة ، فهى على العموم فى ايتاليا أرخص منها فى فرنسا ، وأجر العربات زهيدة ، والجلد المصنوع يباع بأقل بكثير من مثله بفرنسا . كل ذلك دليل على أن هذه أغنى من تلك ، ويدل على ذلك أيضاً ان الدخول فى المتاحف الفرنسية بالمجان ؛ وأما فى ايتاليا فلا بد من دفع اجرة لذلك

وقد خلَّدَ نابليون فى ميلان ذكرى كبيرة لاسمه ، بما تركه من الآثار التى يمر عليها الانسان فى كل ناحية منهـا . ومع أن أهلها

أشرف أخلاقاً من غيرهم ، ولكن ليس فيهم هذا الشمم الفرنسى ، ومتى وصلهم الانسان ببعض النقود كانوا طوع اشارته فى كل أمر بدون انفة ولا كبرياء

أقمنا بميلان نحو الثلاثة الأيام ، ومنها ركبنا القطار القائم الى فينيز أو مدينة البندقية ، فشاهدنا بين عرباته وعربات سكك سويسرا فرقاً عظيماً من حيث النظافة والراحة . وكانت الغيطان التى نمر بها مزروعة بالذرة والبرسيم ، وكنا نتأخر كثيراً فى المحطات ، ولا سيما فى ڤيرون بحيث يفوت الميعاد ، وناظر المحطة يصفر ، والوابور لا يتحرّك ، فذكرنى ذلك ما يحصل فى بعض الخطوط الفرعية فى بلادنا

ولما اقتربنا من البندقية وجدنا ضواحيها كضواحى الاسكندرية ، بما يخترقه الانسان من بحيرات مالحة ؛ ثم سرنا مسافة طويلة على جسر يكتنفه الماء من كل ناحية ، حتى بلغنا المحطة بعد مسير ست ساعات ونصف ، وكان ذلك فى مساء الأحد ٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠

مدينة البندقية

مدينة غريبة فى بابها ، قديمة العهد ، يسكنها الآن نحو المائة والستين ألف نفس ، نالت من المجد فى زمن استقلالها وقيام

جمهوريتها ما لم تنله سواها ، لا سيما بعد ان ساعدت الصليبيين ، وفتحوا لها طريق الشرق ، وانتشرت سفنها على شواطىء الشام ومصر ، وامتدت سلطتها على كريد وقبرص ، وبلغ عدد مراكبها ٣٣٠ يقودها ٤٠٠٠٠ بحرى ، ولكنها بعد هذا العز ابتدأت فى الاضمحلال ، لا سيما بعد اكتشاف أمريكا ، والوصول الى الهند عن طريق رأس الرجا الصالح ، فانفصلت عنها أملاكها ، وانتزع منها الترك جزيرة قبرص ، ثم استولى عليها نفسها نابوليون الأول سنة ١٧٩٢ ، وبعد ذلك ضمت الى النمسا ، وخرجت عليها فى سنة ١٧٩٨ ، ثم انضمت الى ايتاليا فى سنة ١٨٦٦ ، وهى مشيدة على ١٠٧ جزر فى وسط البحر ، يفصل بينها ١٤٩ ترعة تقوم فيها مقام الشوارع فى المدن الاخرى ؛ وأهم هذه الترع الترعةُ الكبرى التى يبلغ عرضها نحو السبعين متراً ، وتعلوها قنطرة ريالتو المشهورة المصنوعة من الرخام . وأهم الآثار الموجودة بها كنيسة مارى مرقص ، وبها ٥٠٠ عامود من الرخام ، وكثير من النقوش القيشانية اللطيفة ؛ وقصر الدوجات ، وهم حكّام المدينة الاقدمون ، وبه كثير من الرخام ؛ وهو بناء عظيم ، مطل على البحر ، وبه رسوم غاية في الجمال ، تدل هيأته العمومية على عظم الجمهورية التى كان هذا القصر مركزاً لحكومتها

على أنه اذا كانت هيأة طبقاته العليا تدلك على أهمية هذه الجمهورية ، فالسفلى تنبئك بما كانت عليه من الاستبداد والظلم ، لأنك تجد تحت القصر حبساً فظيعاً كان يلقى فيه المسجونون ، فيقضون حياتهم فى جوف الارض ، تأكلهم الرطوبة دون أن يروا النور أو يكلموا أحداً ؛ واذا خرجوا منه ، فلاعدامهم والقاء جثثهم فى البحر من أعلا قنطرة التأوه المتصلة بالقصر

ويجاور هذا القصر من جهةٍ ميدانٌ صغير ، وفيه عاموذان عظيمان ، يعلو أحدهما تمثال مارى تادرس ، والآخر أسد ، وهو رمز عن مارى مرقص ؛ ومن الجهة الاخرى الميدان الكبير ، وهو محل اجتماع أهل البلد ، تحيط به المخازن المهمة الكائنة فى أسفل القصور التى كانت معدة فى سالف الأيام لاقامة نواب الجمهورية ، وصار بعضها الآن مخصصاً للملك ، والبعض لمحلات التجارة

ويكثر الحمام فى هذا الميدان ، فيمر الانسان عليه لا يخاف ولا يتحرك ، لأنَّ الناس تعوَّدوا أن لا يؤذوه ؛ بل تراهم يُلقُون اليهِ ما استطاعوا من الحب لغذائه . ثم الحديقة العمومية ، فالقصور المتعددة المنتشرة فى جميع ارجاء المدينة ، فالمتحف والتياترو ، والمدرسة البحرية ؛ ثم الكنائس العديدة ، لا سيما كنيسة مارى بولص وبها قبور الدوجات

وأما صناعة البلد فتنحصر على الأخص فى الزجاج ، والمرايا ، والشمع ، والدخان ، والآنية ، وأثاث المنازل ، والقيشانى ، والبلور

وعلى مقربة من المدينة محلات للنزهة بها الحدائق والرياض ، أهمها الليدو ، وفيه عدة قهوات ومطاعم ، ومحلات للهو والطرب . هذا ولوجود المنازل فى وسط الماء ، فالهواء معتدل ، ولكن الرطوبة شديدة ؛ وأحسن وقت يتمتع فيه الانسان بمناظر المدينة هو الليل ، حيث تسير المراكب فى وسط الترع متلألئة بالأنوار ، وفيها الموسيقيون يعزفون بآلاتهم ، والمغنون يترنمون بالحانهم ، مما يذكر الانسان بما ألفه الكتاب ، وأنشأه الشعراء من حوادث العشق ، وغريب الراويات التى جعلوا مدينة البندقية مرسحاً لها ؛ الاَّ ان صدر الانسان يضيق عند مروره أمام القصور العظيمة التى شيّدها الأشراف فى غابر الزمان ، وأخنى عليهم وعليها صَرف الحَدَثان ، فأصبح بعضها مشغولاً بالمعامل ، وبعضها بالنزل وبعضها بالمتاحف ، وبعضها أضحى ملكاً لأغيناء الأجانب ، ولم تحفظ للذين ابتنوها سوى الاسم ؛ فيقول لك المراكبي وهو مار أمامها ، هذا قصر فلان ، وذاك شاده فلان

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالاً بعد حال

فسبحان من له الدوام

ومما لاحظتهُ فى هذه المدينة، تعوُّد كثير من أهلها لبس شال كبير فوق ملابسهم، يشتملون بهِ كما هى العادة الشرقية. وقد ذكَّرتني كثرة الكنائس الموجودة التى بناها الدوجات مع استبدادهم ما كان يعملهُ بعض المماليك فى مصر من اغتصاب أموال الناس وبناء المساجد؛ كما لاحظتُ فساد ذمة أهل البلد وضعف مروءتهم، حيث يطلبون من المشترى أضعاف قيمة السلعة، ولا سبيل معهم الى الوصول للسعر الحقيق الاَّ بعد طول المساومة وشدَّة العلاج؛ وقد يترقَّب الواحد منهم وقوف الانسان أمام حانوتهِ، فيخرج اليهِ ويضايقهُ حتى يُدْخلهُ فيبيعه ما استطاع بما استطاع من الغشّ؛ وقد يتخذ بعضهم طريقة أخرى، فيُرْسل أُناساً يتعقَّبون السيَّاح ويُرَغّبونهم فى زيارة المعامل، فإذا دخلوها طاف بهم أصحابها فى كلّ مكانٍ، فيضطرّ المتفرّج الى ابتياع الأشياء، وهـذه طريقة من طرق كسب المعيشةِ.

ولما كان يوم الثلاثاء ٤ سبتمبر، قُمنا فى الساعة الحادية عشرة مساء من مدينة البندقية، ورَكبنا سفينـة من سفن شركة اللويد النمساوية، فوصلنا الى تريستا فى الساعة السادسة صباحاً

نربسنا

هى مدينة محصَّنة ، وأهم ميناء تجارية نمساوية ، وبها من السكان خمس وسبعون ألف نفس ؛ وأهم ما فيها مدرسة المهندسخانة ، والمتحف ، وشارع الكورسو ، والقلعة ، والكنيسة ، والتياترو ، وقصر شركة اللويد ، وسراى البلدية . وأما صناعتها فأهمها الصابون ، والقطيفة ، والسكر . وهى مدينة نظيفة ، يظهر من حالتها ومركزها الطبيعى أن سيكون لها مستقبل عظيم ، وأهلها يغلب عليهم التكلم بالتليانية ، وهم على غاية من اللطف وحسن الأخلاق . وقد قمنا منها يوم الأربعاء ٥ سبتمبر على احدى سفن شركة اللويد ، ومررنا فى طريقنا بمدينة برندزى الايتالية ، فوقفنا بها ساعتين ؛ وهى مدينة قديمة العهد ، يسكنها نحو ١٤٥٠٠ نفس ، وبها عامود مكتوب عليه أنها عمرت بعد أن خربها العرب ؛ وبها كنيسة عتيقة ، ولكنها أقذر المدن التى شاهدتها ، ومع أن شوارعها مبلطة ، وبها النور الكهربائى فهى ملأى بقشر البطيخ والذرة ، وأنواع القاذورات ؛ يكثر فيها الذباب ، وترى كثيرًا من أهلها مرتدين الملابس الحقيرة ، وأطفالها حفاة الاقدام ، كثيرو السؤال ، لو رميت اليهم بقرش انقضوا عليهِ والظافر من أخذه ولو شجت رأسه ؛ ويظهر على سكانها فساد الاخلاق

وأما ضواحيها فخصبة التربة، تكثر فيها الفاكهة، لا سيما الخوخ، والعنب، والتين، والبطيخ. وقد تركناها وسارت بنا السفينة تشق عباب البحر، والشوق يزداد فى قلوبنا لرؤية الوطن، والفكر يجول فيما رأيناه من البلاد، وما شاهدناه من الأخلاق، والنفس تتمنى أن يسلك أهل وطننا الطريق الذى سلكه الغربيون من قبلهم، حتى يجعلوا العلم نبراساً يستضيئون بهِ فى أعمالهم، وأن يجدُّوا ويجتهدوا للوصول الى غاياتهم، تاركين الحسد والبغضاء، متمسكين بالثبات والاتحاد لتحسن أحوالهم، وتنتظم أمورهم، والله تعالى قادر أن يرشدهم الى ما فيه الصواب

ولم نزل كذلك، والبحر هادئ، والهواء معتدل، حتى وصلنا الى الاسكندرية صباح الأحد ٩ سبتمبر سنة ١٩٠٠، ففرحنا بلقاء الأهل والأحباب، وحمدنا المولى على حسن الاياب

فألقت عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

الاصلاح الحقيقى

اذكر فى هذه العُجالة بعض الكلام فى المعارف ، وقد سبقنى فى هذا الباب كثير من جهابذة العلماء الفاضلين فشرحوا فضل العلم ، وأبانوا مبلغ أثره بلسان أفصح من لسانى ، وقلم أبلغ من قلمى ؛ فلا حاجةَ اذاً الى إعادة ما أوردوه من ذلك

ولكن بما أن وطننا اليوم أضحى مناطاً للتعديلات والنُّظُم ، فقد أحببت أن أثبت لكم أن هذه التعديلات وتلك الأناظيم لا يكون لها أثر صالح إلاَّ اذا بنيت على أساس مكين ، وذلك الأساس هو نشر المعارف بين أبناء البلاد

نعم تلك حقيقةٌ أقرَّها العقل ، وأثبتها التاريخ ، فلو أجلنا الطرف فى تاريخ مَن سبقنا من الأُمم ، لوجدنا أن سعادة الدولة متعلقة بنشر المعارف بين أبنائها ؛ فانهُ اذا كانت الدولة عظيمة قويَّة ، مكَّن العلمُ لها فى الأرض ، وهداها أقومَ السبل الى ارتفاع شأنها وبسطة سلطانها ، وازدياد عمرانها ؛ ولكنها اذا لم تتهدَّ فى سيرها على سنا العلم ، أظلم عليها طريقُ الحياة ، فلا تزال تتَنكَّبُ طُرُق العافية حتى تتردَّى فى هوَّة الاضمحلال والزوال

فالقوَّة المادية وحدها لا تكفى اذا لم يكن لها عَوْنٌ من العلم

يثبت أقدامها ، ويَمُدُّ لها فى أسباب المنعة والبأس والسلطان

العلم فى الدولة كالعقل من رأس الإنسان ، فاذا كانت الدولة قويّةً ، علّمها كيف تستعمل قُوَّتها ؛ واذا كانت ضعيفةً ، علّمها كيف تبنى المجدَ ، وتنزل منازل الكرامة ؛ ولنا فيما جرى على العباسيين والعثمانيين أعظم دليل على ما نقول :

فالعباسيون الذين قد ذاع صيتهم ، وسما مجدُهم ، وجُبِيت لهم أطراف الأرض فى عهد الرشيد وابنه المأمون ، لم يتم لهما ذلك إلاّ لأنهما استضاءا بنور العلم ، فأخضرت أفنانه ، وأينعت أغصانه فى الدولة ، فبهر جميع ملوك الأرض ، وسعى كل منهم يتقرَّبون زلفى الى هؤلاء الخلفاء

ثم لما كسدت سوق العلم فى الدولة ، وطاف عليها طائف من الفتن التى منشؤها الجهل وسوء الرأى ، تصدَّعت أركانها ، وتهدم بنيانها ، وآذنت شمسها بالمغيب

والعثمانيون الذين انتشروا فى الأرض ليوثاً كواثر ، فثلُّوا عروشاً وأخضعوا ملوكاً ، وملكوا أمماً ، وسادوا البلاد ، وأخذوا بنواصى العباد ؛ فماذا جرى لهم ؟

انهم لم يقتدوا بالعباسيين ، ولم ينشروا لواء العلم بينهم حق نشره ليستفيدوا فى فتوحهم ، ويتمتعوا بسلطانهم الذى لا تكاد تغرب

الشمس عن أقطاره ، فسرعان ما نزعت الأمم التى دانت لهم الى الفتن ، وشقت عصا الطاعة ، وليس لهم من القوّة ما يكفل لهم تقرير النظام على وجهه ، فخرجت بهذه الوسيلة من بين أيديهم أقاليم كثيرة

واذا تحولنا الى وطننا العزيز ، رأينا فى تاريخه من العبرة ما رأيناه لمن خلا من العباسيين والعثمانيين ؛ واذا أمعنا النظر فى حالته الحاضرة والتمسنا أنجع الدواء لدائه ، لما أصبنا غيرَ العلم ، فان داءه مهما تنوّعت مظاهره ليس إلاَّ الجهل

يشق عليَّ وايم الله أن أقول ذلك ، ولكن من لم يعرف حقيقة دائهِ ، جدير بهِ أن لا يهتدى الى دوائه

نعم ان فينا طائفة من الافاضل الذين ارتضعوا أفاويق العلم واستصبحوا بنوره ، ولكن أين يقعون من جميع أبناء الوطن

وهل يقال في بلد يعدُّ سكانه بالملايين ان للعلم نصيباً فيه ، اذا انحصر العلم الصحيح — على الاكثر — في أقل من ألف رجل من ابنائه

تحتاج بلادنا الى اصلاحات جمة ، ولكن تلك الاصلاحات — كما قلت لك في صدر هذه المقالة — لا تاتى بالثمرة المطلوبة الا اذا عضدت بنشر المعارف ؛ وأى ثمرة تُرجى من اصلاح لا يكون

المكلَّفون بهِ والقائمون عليه مدركين لكنهم ، ولا عالمين بالقصد منه ؛ فهو اذا لم يأت — على هذا — بأشد الاضرار ، فلا يكون له أثر من الآثار

ليس يتسع هذا المقام لذكر جميع الاصلاحات اللازمة ، ولكنني أذكر بعض ما يشكو منهُ عقلاء المصريين ، لاثبت أن المعارف هي أنفع مرهم لجراحات هذا البلد . وأقصر القول في ذلك على مسئلتين:

— الخدمة العسكرية — واستخدام الأجانب في المرافق المصرية

الخدمة العسكرية — سمعت كثيراً من اخواني يلغطون بمسألة حدثت في مصر منذ مدة ، وهي أن امرأة خرَّت ميتة عند ما علمت أن ابنها قُرع لهُ في العسكرية ، ويأسفون لذلك ، ويقولون إن المصريين عارون عن الوطنية ، متجردون عن كل محبة لبلادهم ، ويسبُّون تلك المرأة التي أشمتت بنا الغرباء . وأما أنا فكان أسفي على ما وقع لها لأنها جاهلة معذورة ، فأين هي من معرفة حب الوطن وادراك واجباته !

أتراها لو عُلِّمت وأُخذت من عهد نشأتها بالتهذيب ، أكان يقع منها ما وقع ، حتى تصبح الأمة بها وبأمثالها عرضة لسخرية الغير ؟ اللهمَّ لا . فانتشار المعارف إذاً يرفع مستوى الأفكار في الأمة ، ويُثبّتُ وطنيتها ، ويكفّ الغير عن الاغارة على حقوقها ؛ وكم

للعلم من الفوائد التى تعود على الأمة أدبياً ومادياً بأبلغ النجاح فى هذه الحياة

استخدام الأجانب فى المرافق المصرية — ذاك أمر شكا منهُ الصغير والكبير ، والعظيم والحقير ، ولكن أى وسيلة للخلاص منهُ الاَّ وجود مصريين مهذبين ، قادرين على أن يحلوا محل الأجانب ؛ وهل يكون ذلك الاَّ بالتعليم ، فان الأجانب لم يولدوا متعلّمين ، ولم تؤثرهم الطبيعة بعقول أذكى من عقول المصريين ، ولا بِفِطَن أقوى من فِطَنهم

أترانا نشكو من وجود الأجانب بيننا ونحن باهمالنا مساعدوهم على ذلك ؟ فلِمَ لا ندرس ما درسوا ، ونخدم بلادنا حق خدمتها ؟

ولا يخفى على فطنة القارئ ما وراء ذلك من الاصلاح ، وتخفيف وطأة النفوذ الأجنبي ، وتأييد سلطة أبناء البلاد وتقدمهم . فان لم نفعل فقد حق علينا أن نطأطأ الرؤوس تحت النير الأجنبي ، وأن يتقلّص عنا ما بقى لنا من آثار السلطة والوطنية — فان الأجنبي ان أتى ببعض الاصلاح ، فليس ذلك الاَّ اصلاحاً وقتياً ، اذا شاء ايقافه استقال من مركزه ، وعادت الحال الى ما كانت عليه . وأما اذا كان العاملون من الوطنيين ، وكانت المعارف منتشرة فى البلاد ، فلا يتنحى عامل الاَّ وقد حل محله من هو مثله ، أو أكثر كفاءةً وتدريباً

فاذا كان الأمر على ما ذكرنا، فما بالنا نرى سوق المعارف بيننا في كساد. وليت شعري هل يحق لنا أن ندّعي أن بلادنا في تقدُّم، اذا كان أساس كل تقدُّم فيها لم يزل ناقصاً؟ كلاَّ

فكل ما نشاهده من الاصلاح، ليس الا مادياً أو وقتياً، وذلك لا يسد في الحياة حاجتنا. فيجب على حكومتنا أن تجري على خطة السداد، وان ترفع فينا لواءَ العلم، وتكثر من المدارس في البلاد، فتؤسس — على الأقل — مدرسة ابتدائية في كل مركز، ومدرسة ثانوية في كل مديرية، ومدارس عليا للعلوم والفنون في العاصمة والاسكندرية. وعلى الاغنياء من اهل البلاد أن يبذلوا المال في نشر العلوم، وأن يعمل كل منا جهده لتهذيب اولاده، حتى اذا تم لنا ذلك، حسنت حالنا، وصلحت بلادنا. وأحسن طريق واقربه الى غايتنا، هي اجتماع كلمتنا، واتحاد قلوبنا

ونسال الله تعالى أن يوفقنا لما فيه خير وطننا، ورقي بلادنا، وأن يديم لنا أميرنا الأكرم عباساً الثاني، ويجعله خير عضد لتقدُّمنا ونجاحنا، آمين

القاهرة دسمبر سنة ١٨٩٤

جمعية التقدم المصرى

ومجلتها

حضرات أعضاء جمعية التقدُّم المصرى الفرعية بالقاهرة

لا يسعنى أن أقدّر مبلَغَ فرحى واغتِباطى عند ما وقَعَ الىَّ أولُ عددٍ من جريدتنا « التقدُّم المصرى » ، فانى قد سبق لى القولُ فى هذا الشأن مع اخوانى أعضاء الجمعية المركزية ، وأجّلنا المضِيَّ فى ذلك الى ما بعدُ

ولكن همتكم القعساء أَبَتْ إلاَّ أن تُبَادِرَ باخراج هـذا العمل الجليل من حيِّزِ القول ، الى حيِّزِ العمل

فحق لكم أجمل الشكر ، وأجزل الثناء

وانى لعمرُ الحق لواثقٌ من نجاح جمعيتنا ، ما دام فيهـا أعضاء ذوو حَزْمٍ وعزيمةٍ وثباتٍ ، مثل أعضائنا فى القاهرة ، فان ما بذلوه من الهمة ، وما صرفوه من العناية ، لدليل على حسن المستقبل

وقد عرضت المجلة على الاخوان فتقبلّوها بقبول حسن ، وأحلُّوها أكرمَ الموضع ، وعَهِدُو بى شكر من لهم الفضل فى ذلك

وكيف لا وقد أصبحت المركزَ الذى تتلاقى عنده آراء وأفكار ،

وتنتهى اليهِ آمالٌ كبار، إذ كان أعضاء جمعيتنا وكلُّ فريق منهم يحويه بلدٌ، وتَشْتَمله رُقعةٌ من الأرض، وكان لا بد لهم من جريدة تنشرُ أفكارهم، وتَبُثُّ آراءهم، فيتلاقون على البعد، ويتحاورُون على تَنائى الديار؛ وتلك منةٌ يجب أن تحفظَ لكم أيها الإخوان فى تاريخ التقدُّم المصرى

ولقد تحلتمونى أنا الفقير من الأثر فى تأسيس الجمعية، ما هو حقيق أن يُنْسَبَ الى جميع الوطنيين الذين أقبلوا على هذا العمل الجليل، وآزروهُ وثابروا عليهِ، حتى تحقق لهم منهُ ما يَرْجُون. فهم أحقُّ منى بالثناء وأجدر

نعم فاليوم ينشرح صدر كل مصرى عند ما يرى الخطوة الكبرى التى خطاها وطنه فى العصر العباسى السعيد

مضى زمن كانت مصرُ فيهِ رافعة لواء العلم والأدب، مكتوباً لها السبقُ على جميع الأُمم فى التجارة والصناعة والزراعة؛ يختلف اليها الوافدون من كل وادٍ لاقتباس أنوارها، أيام كانت الكنانة موطن المعارف، ومحط رحال العلماء؛ فهى أقدم البلاد مدنية، وأعرقها حضارة، كما تشهد بذلك آثارها البديعة

فسل الاهرام عمن بناها، والكَرْنَكَ والأقصرَ عمن اختطَّها وأعلا ذُراها، والأزهرَ وما دُرِسَ فيهِ من العلوم، وفتق فيهِ من

الآراء — تلك آثار بَلِيَ الدهرُ ولم تَبْلَ ، ولا تزال كلَّ يوم تبكتنا على إهمالنا ، وتعنفنا على تراخينا وقعودنا عن الاقتداء بأسلافنا ، حتى هِمْنا فى أودية الجهل ، وتسكَّعْنا فى طرق العَمَاية ، وأصبحنا على شفير الهلاك ، ونكَلْنا عن النهوض بما يعلى شأننا ويَعْصِمُ علينا تُراث أجدادنا ؛ وبتنا ينظر بعضنا لبعض شذراً ، لا ندرى الى أى غاية نحن مَصْرُوفون

يرانا الأجنبى فيتساءل ، ليت شعرى أهؤلاء حقاً أبناء من كانوا أئمةَ المعارفِ وحُماة المدنية ؟ كلاَّ كلاَّ ، فذلك ما لا يدخل فى دائرة الامكان !

ملكتنا الأهواء ، فنبذنا مصلحة وطننا وراء ظهورنا ، وآثرنا منافِعَنا الخاصة . تَفَاقَمَ فينا الحِقْد ، فكَدُرَت نفوسُنا ، وتغيَّرت قلوبُنا . اختلفت كلمتُنا ، فَضَعُفَتْ قوَّتُنا . تَفَرَّق رأيُنا فانحلَّتْ عزيمتُنا ، وصرنا أمواتاً فى صُورة الأحياء ، أغراباً فى بلادنا ، مُزْدَرَيْنَ فى بلاد غيرنا

بينا كُنا نَهْوِى من أعلا ذُرى المدنية الى أبعد أغوار الهمجية ، كانت أوروبا تُغيرُ على ما تركهُ لنا الآباء ، فتهذبُ من أطرافه بما يلائم طبيعتها ، وتزيد فيهِ ما يزيد فى قُوَّتها

ولو أهاب بنا نَصيحٌ أن انظروا الى هؤلاء القوم ، وما هم عليهِ

من التقدُّم والنجاح، لأجاب اكثرنا : ما هذا ؟ أما تدرى أنهم أخذوا ذلك عنَّا، ونقلوه عن أسلافنا ! وليس يدرى أن عذره أقبح من ذنبه، وأنهُ يسجِّلُ على نفسه الإهمال والتفريط، لأنهُ أضاع مجد الآباء، وتردَّى جلباب الجهل والمذلة

لم نزل على هذه الحال من التدهور والسقوط، حتى قيَّضَ اللهُ لنا العائلة الكريمة العلَوية، فانتشلتنا من وهدَة الانحطاط، وأخرجتنا من ظلمات الجهل الى نور العلم

ولكن لما كان من المستحيل أن تمحو الأعوام دفعة واحدة ما فعلتهُ الأجيال، فقد تواردت الهمم على مواصلة الإصلاح، لولا ما كان يعتريه فى بعض الأحيان من الفتور أو الابطاء، حتى أتى العصر العباسى، وقد أوفى العلم على منازل سعده، وبزغت شمس العرفان فى سماء مجده، فانتبه المصريون من نومهم، وأنشأوا الجرائد الوطنية، وأسسوا الجمعيات العلمية والأدبية، وأحسوا بما هم عليهِ من التأخر فى الصناعة والتجارة، فاستنهضوا الهمم، ودَبَّ الأمل بعد اليأس . وكان لهم اكبر العون من حزم مليكهم وعزمه

وما كان يليقُ بنا نحن شبان الوطن أن نتمادى فى تناكُلِنَا وتخَاذُلِنا، ووطنُنا يذكرنا بما لهُ علينا من الواجبات، وأميرنا يناضل عن حقوقنا على مدى الأيام والساعات

نهضنا وعقدنا النيةَ على انشاء جمعيـة التقدُّم المصرى خالصةً لخدمة البلاد، وما نطلب بها إلاَّ جمعَ كلمة مُحبى الوطن على نشر المعارف، وتعضيد المشروعات الوطنية على قدر الاستطاعة، فقد مضى الزمَنُ الذى كان يُعَدُّ فيـهِ كل تجمع تَعَصُّباً، وحظينا بالحرية وافيةً، وأصبح من الواجب علينا أن نستعملَ هذه الحرية فى خدمة مصرنا وأميرنا، وأملنا فى النجاح وطيد

أمَّا الآن، وقد تأسست هذه الجمعية، ودخل فيها الكثير من الأساتذة الأفاضل، والشبان النجباء، رأيت أن أنشر ما تطمح اليه أنظارها، وتتجه نحوه رغبة أعضائها، فأقول:

ان الرجاء معقود بأن يكون لجمعيتنا فى كل مدينة أنشئت فيها جمعيةٌ فرعيةٌ محلٌّ تُجمَعُ فيـهِ الجرائدُ والكتب المفيدة، يجتمع فيه الأعضـاء وقت الفراغ للسمر والمحاضرة والقراءة؛ فيغنيهم ذلك عن التردد على القهوات ونحوها، إذ يجدون فيه ما يحتاجون اليهِ؛ وتُلقَى فى هذا النادى الخُطَبُ العلميةُ والأدبية، على جهة المناقشات أو نحوهـا؛ فيقوم بهذا حضرات الأعضاء، أو من يَدْعونَهم من أرباب الشهرة فى المعارف، ويعاون الأعضاء فى تحرير مجلة التقدُّم المصرى بانشاء المقالات النافعة، فيستفيدون ويفيدون

وتسعى الجمعيةُ جُهْدَها فى انشاء المدارس، وتعضيد كل مشروع

وطنى يكون فيه تقدُّمٌ للبلاد . وعلى الجملة فانها تسعى وراء التقدُّم المصرى ، مهما تنوَّعت فروعه ، واختلفت طرقه ؛ فالغاية التى تطلبها عظيمةٌ ، لا يخلو طريقها من المصاعب والعثَرات ، ولكنها تعتمد فى تذليلها على وطنية كل مصرى يحب بلادَه ، والله المستعان

فيا أيها المصريون عامةً ، ويا أيها الشبان خاصةً ، أسألكم بحق الوطنية أن تُقبِلوا على هذا المشروع العظيم ، فالاجتماع يهوّن الصعب ويُدنى البَعيد

انظروا الى جميع الأُمم المُمدَّنة ، تروا أهلها قد اتحدت كلمتهم ، وصحَّت وطنيتهم ، وعرفوا لها حقَّها ، فأدركوا الغرض ، وبلَغُوا المقصِد ؛ ولِمَ لا نفعلُ مثل ما فعَلُوا ، وأجْدَادُنا أقدم من ارتَضعُوا أفاويق العلم والمعارف ، وبرَعوا فى جميع الفنون ؛ فهلمَّ بنا نسترجع مجدَهم ، ونُحيي ما دَرَسَ من آثارهم ، متوسلين الى الحق سبحانه وتعالى ، أن يبقى لنا دولة العباس التى تعلقت به آمال التقدُّم المصرى

مونبلييه مايو سنة ١٨٩٣

إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم

آيةٌ جَمَعَتْ من النصيحة أسماها، ومن الحكمة أثبتَها وأعلاها وكيف لا وقد اشتملت على قانون ترقى الأمم وتأخّرها، وسعادتها وشقائها

نعم لا تهبُّ الأمم من رقدتها، ولا تَنْهَضُ من عثْرتِها، إلاَّ اذا انبَعَثَ فيها روح جديد، هو روح التقدُّم والفلاح؛ كما أنها لا تسقط من ذروة المجد الى قرار الهمجية، الاَّ اذا نَسِيتْ تقاليدَها الحميدةَ، وتحوَّلت الى الخطة العوجاء، ونبذت وراء ظهورها محاسن خلالها، وجعلت الرذيلة مَسْرَح هواها ومناط آمالها

فالباحث فى أحوال الشعوب وحوادثها، وأخلاقها وتواريخها، يجد أن تقدُّمها يرجع الى أسباب تعرِض لها، وأميال تقوم بأفرادها؛ فباستمكان هذه الأسباب، واتصال تلك الأميال، يعظم أمرها، ويعلو قدرها، حتى اذا انصرفت الأغراض الى غيرها، تغيَّرت الحال، ودبَّ اليها الانحلال، وأخذ فيها الاضمحلال، ولا تزال تجرى على ضلَّة من أمرها، حتى يُبَصِّرها الله بعيوبها، ويكشف لها عن مواطئ أقدامها، ويظهرها على حقيقة دائها، فتلتمس أنجع الدواء، وتسارع الى اصلاح ما فسد من أمرها، وتنتهج أقوم الخطط

الى ما يكفل لها النجاح ، ولافرادها الرفاهة والهناء

فاذا انتقلنا من هذه القاعدة العامة ، الى القول فى حالة وطننا العزيز ، رأينا أنهُ قد نال حظه من المجد ، ورفعة الشأن ، وبسطة السلطان ؛ كما نال قسمه من التقهقر والتأخر

ولكل من هذه الحالات علل وأسباب ، تدور معها دوران المعلول مع العلَّة وجوداً وعدماً . وحبذا لو قام بعض الأفاضل من المصريين بتأليف تاريخ لمصر ، يترك فيهِ سير الملوك ، وما يشابهها من الحوادث التى توجد فى كثير من الكتب ، ويقصر الكلام على البحث فى أسباب تأخر مصر وتقدُّمها ، من العصر الفرعونى الى يومنا هذا ؛ فمثل هذا المؤلَّف يكون عظيم الفائدة ، اذ بهِ يستفيد المتأخِّرون من اختبارات من سبقهم ، ويهتدون سبل الفوز والتقدُّم

ولسنا نعدم من أبناء الوطن من هم جديرون باتمام هذا العمل الجليل ولو أمعنا النظر فيما نحن فيهِ اليوم ، لوجدنا من أهم أسبابه التى ثَبَتَتْ أصولها ، ونمت فروعها ، ما غرس فينا من الحسد بعضنا لبعض ، حتى أورق فى كل صدر ، وأثمر فى كل قلب ؛ وثقلت على كل واحد منا حياة أخيهِ ، وامتلأ جوفه عليهِ حقداً ، فقام التاجر يقبح سلعة التاجر ، والصانع يذم صناعة أخيهِ ، والفلاَّح يرتكب

وجوه المشاق فى افسادِ الحياةِ على جاره، كأننا لم نُخْلَق للاتحاد والتعاون على فعل الخير، والبر بأنفسنا وبلادنا؛ وانما خُلِقْنا أفاعىَ ينهش بعضها بعضاً. وأنَّى لنا أن نبلغ مبلغ الحيوانات، فاننا والله لأسوأ منها حالاً، وأتعس مآلاً، لأنها اذا أكل بعضها بعضاً، فانما يفعل ذلك منها من يفعله سدًّا للرمق وامساكاً على الحياة؛ أما نحن فانما نفعل ذلك شفاءً لأضغان قلوبنا، وتسكيناً لأحقاد صدورنا

على أن تلك النقائص — لتمام تعاستنا — لم تقتصر على طائفة دون أُخرى، بل انتظمت فى سلكها قوماً كنا نظن أنهم أوفر نزاهة من أن يتلطَّخوا بهذا العار، لاشتغالهم بالآداب، وانعِقَاد الشهرة لهم فى فنون الكمالات

فلست ترى مصرياً شُهِدَ لهُ بالفضل والتقدُّم فى أى فنٍّ من الفنون، أو علم من العلوم، أو صناعة من الصناعات، الأَّوقد جردت عليهِ ألسنة حداد، ترميهِ بما هو منهُ براء، وعقدت المجالس لذمهِ والنيل منهُ، سعياً فى اسقاطه وتجريح سمعته، كأنما هو قد ارتكب وزراً عظيماً بفعله بعض ما يجب عليهِ لنفسه ولبلاده

وقد ترى لهؤلاء الحسَّاد تفنناً فى أساليب تقبيح الأفاضل، والحطِّ من أقدارهم، فمن قائلٍ إن زيداً لم يَصلْ الى هذه الدرجة من الرفعـةِ أو حسن السمعةِ إلاَّ لِمَا استعمله من الغشِّ! وربما اختَلَقُوا تفصيلات عالجوا إثباتُها بشبه أوهى من خيوط العنكبوت

ومن قائل إن عمرواً لم يعمل ما عمل إلاَّ لقصد الشهرة والتفاخر!

ومنهم من يقول أين خالد من فلان، فهو أقوى منهُ حجة، واكثر فهماً، وأحكم صنعة، وأشد عزيمة، وأوسع اطلاعاً و.. .. و.... الى آخر هذه الأقوال الساقطة؛ فلِمَ لا يفخرون بأنفسهم ان كان لا بدَّ من الافتخار؟ ومتى كان وجود عَمْرو وبكر فى طبقة الأفاضل البارعين يمنع وجود غيرهم؟ كلاَّ، بل ان ميدان الفضل ومكارم الأخلاق، أوسع من أفكار هؤلاء المتعصبين للنقائص، المتشيّعين للرذائل، المستعبَدين للشهوات

يا عجبا كل العجب! أيمنعنا الحسد عن الإقرار بفضل وطنيينا، بل ويدفعنا الى ارتكاب كل مذمة توسلاً الى إيقاع الضرر بهم، على حين أننا لو رأينا أجنبياً لبادرنا بعَقْدألوية الثناء عليهِ، وملأنا السهل والجبَلَ بحمده وإطراء مآثرهِ

ذلك شأننا فى جميع أعمالنا، نروّج بضاعة الغير، ونبخس أبناء بلادنا حقوقهم، فلا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله

وليت هذه الحالة الذميمة تعود على صاحبها بنفع ما، بل نتيجتها وخيمة على الحاسد والمحسود كليهما، وعلى الهيئة الاجتماعية بأسرها. فهى تلبس الحاسد جلباب المقت والاحتقار، لأنها تحمله على النميمة، والرغبة فى كل ما يعود على الغير بالخسارة وذهاب الشأن، وغير ذلك من ذميم الخلال؛ ألم يعلم هذا المسكين ما خلت بهِ الحكمة

البالغة (الحسود لا يسود) ، فليتأمل فى ذلك ، وليتّقِ الله

وأما المحسود ، فربما أضرَّ بهِ سعى حاسديهِ ، وان لم يَضرّه فلا أقل من أن يثبّط هِمَّتَهُ ، ويخمد عزْمَته ، فان لم يكن هذا ولا ذا ، امتلأ صدره حقداً على من يريدون بهِ السوء ، أو يجزع من انتشار مثل هذه الأخلاق فى وطنه ومسقط رأسه

والمضارُّ العظمى التى تَنَالُ من مصلحة الأمة بمجموعها ، انما هى مظهر من مظاهر الضرر اللاحق بكل من أفرادهـا ، فهى بمثابة الجسم ، يشتكى كله اذا مرض عضو من أعضائهِ

وما مثل الحاسد الاَّ كمثل انسان رأى جارَه يرفع بناءً شامخاً ، فعزَّ ذلك عليهِ ، فما زال ينقر فى أساس جِدَاره ، حتى تداعى البناء ، فانهال على بيته نَفْسِهِ ، ودفن تحت أنقاضه ، فأتى ثالث فأغار على ملك الاثنين ، ورفع فوق آثارهما صَرْحاً رفيع العماد ، وحمد عملهما الذى عاد عليهِ بأعظم المصالح ، وأبلغ الفوائد

وتلك حالنا بعينها ، نخدم الغير بكراهة أبناء وطننا ، فلا ننفع أنفسنا ، ولكن نجلب الشر لبلادنا

ما بالنا نحسد زيداً أو عمرواً على ما آتاه الله من فضله ، وليم لا نفعل مثل ما فعل ، فَنَحْصُلَ على ما حَصَل ، ونكون قد نفعنا أنفسنا ، وخدمنا بلادنا

هذا والله أجدر بنا، وأسلم عاقبة لنا، فنحن الى الاتحاد أشد احتياجاً من غيرنا

فهل جهلنا ما انطوى عليهِ صفاء القلوب من السِّرّ؟ ألم يَصلْ الينا ما كان عليهِ العربُ من العزَّة والمنعَة فى أول نشأة الاسلام، وما صاروا اليهِ بعد ذلك من الذل الذى جلبهُ عليهم الحسد والبغضاء؟ أليس الحسد هو الذى فرَّق كلمتهم وأذهب ريحهم؟ فلماذا نحوّل أنظارنا عن هـذه الدروس البليغة، ولماذا تعشى أبصارنا عن رؤية تلك العظات البالغة؟ أنريد التقدُّم ونحن نمشى فى طريق التأخر؟ ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجرى على اليَبَسِ

فهيهات أن نصل الى المجد إلاَّ من طريقـه المشروع، وسبيله الواضح؛ اللهمَّ إلاَّ اذا انعكست الأمور، وطلعت الشمس من مغربها: نبتغى الإصلاح، ولا نعمل لذلك شيئاً، ونعلل النفس ببلوغه ونحن على ما نحن عليهِ أمس. لعمر أبيك ان ذاك لمن رابع المستحيلات؛ فان الأسباب اذا لم تتغيَّر، فلا تُغيَّر فى المُسبَّبات، والمقدمات اذا لم تتبدَّل، فلا تبديل للنتائج

فيجب علينـا أن يرجع كل منَّا الى ضميره، ويستجلى عيوبه فيجتنبها، ونعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

القاهرة دسمبر سنة ١٨٩٣

الخدمة العسكرية

زارنى أحدُ أصحابى، ودعانى لأخرج معهُ الى النزهة، فلبَّيْتُ طلبه رغبةً فى الراحة من عناء الأعمال، بترويض الفكرِ. وبينا نحن فى بعض الطريق الموصّل الى مركز المديرية، اذ لقينا جمٌّ غفيرٌ من النساء والأطفال، يتقدَّمهُ طائفةٌ من الرجال، نكَّر الحزنُ معارِفَ وجوههم، وأخذَ الأسى فيهم مأخذَه. وبينهم شبانٌ يبكون ويستعبرون، والنسوة مِنْ خلفِهم نادبات صارخات، مُرْسلاتُ الشعور، يلطمنَ الوجوه، ويلدِمنَ الصدور؛ فتقدَّمت وصاحبى نكشف خبر هـذا الجمع الحزين، ونقف على أمر تلك المصيبة المدلهمة التى حلَّت بالقوم، لأننا ظننا لأول وهلة أن القوم يشيِّعُون ميتاً، غير أننا لم نرَ بينهم نعشاً، فازدادت دهشتنا، فلم ننشب أن علمنا — ويا للأسف أن هذا العويل وهذا الصراخ، إنما بعثهُ قَبُول بعض أولئك الشبان فى القرعة، وانتظامهم فى سلك الجيش: فبلغ منى الجزَعُ، وقلت لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، أين حب الوطن؟ وأين معرفةُ الواجب؟ وذكرنى ذاك بما كنت أراه فى فرنسا من فرح المقبولين فى القرعة وابتهاجهم، حتى انهم يمشون وأمامهم الموسيقى تصدح بالألحان الوطنية، وقد رَشقَ كلٌّ منهم فى قُبَّعَتهِ علَماً وطنياً

صغيراً ، إشارة الى أنهُ تشرف بالانتظام فى سلك الجيش للدفاع عن وطنهِ ، والذود عن حقوقه ، ولو كان وراء ذلك ما وراءه من إتلاف النفس ، واراقة الدماء ، وركوب أشد الأخطار

وقد ازداد غيظى وحنَقى عند ما قابلت جمعاً آخر مُنْطَلِقاً من المديرية ، وهو يُهلل ويُكبِّرُ ، فرحاً بأن الشابَّ الذى يرافقه لم يُقبل إذ وُجِدَ « شُرُكاً » كما يقولون

وقد أذكرنى هذا المنظر أيضاً بما سمعتهُ وأنا فى فرنسا من أن أحد الشبان قتل نفسه ، لأنهُ لم يقبل فى القرعة ؛ فصحت بصاحبى ، ألا قابلتَ بين حالة بلادنا وحالة البلاد الأُخرى ؟ فرأيتهُ مثلى جَزِعاً مما سمع ورأى ، ساخِطاً على هذه العادات

ولم نكد ننتهى من حديثنا ، حتى لَمَحْنا بعضَ الأفرنج واقفين على مقربة منا ، مبهوتين لما رأوه ؛ وكان بينهم شاب أعرفهُ ويعرفنى ، فضاق صدرى لما رأيت على وجوههم من علامات الاحتقار والازدراء ، بعد الذى شاهدوه من عادات أبناء وطنى ، ومبلغ شجاعتهم وحبهم للدفاع عن اوطانهم ! فقلت لصاحبى ، لِنُسْرِعْ فى مَشْيتنا تفادياً من لقائهم ، والحديث معهم فى شأن هذه المناظر التى تَتَصَدَّعُ لها كبد كل وطنى يجرى فى عروقه الدم المصرى . وكأن القوم قد أدركوا حيرتنا فأسرع صاحبى الينا وابتدرنا بالسلام ، ودعانا الى الذهاب معهُ للنزهة

والرياضة ؛ فقلت فى نفسى قد والله وقعنا فيما كنا نخشاه ، فاعتذرت كثيرًا ، ولكنهُ لم يقبل منى اعتذار ، وَوَدَّعَ اخوانه ، ومضى معى وصاحبى الى شواطئ الجعفرية ، وهى المُتَنَزَّهُ الوحيد الذى يخرج اليهِ أهل طنطا لاستنشاق الهواء ، والتمتع بمناظر الطبيعة الزهراء . فابتدأ صاحبُنا الغربى يكلمنا كما جرت العادات فى بلاده على الجو والهواء ، وماء النيل الذى يعلو صعدًا كلّ يوم فى الترعة ، وغير ذلك من المسائل ، حتى انتهى الى الكلام فى مسئلة القرعة ، وما رآه فى طريق المديرية ، وسألنى عن أسباب خوف الفلاحين من الخدمة العسكرية ، وكراهتهم لها

فأجبتهُ : اعلم أيها الصديق ، أنهُ مضت مدة طويلة كانت فيها معاملة الضباط للعسكر شديدةً قاسيةً ، اذ كانوا يسومونهم الخَسْفَ ، على أنهم أنفُسهُم كانوا عُرْضَةً لغضب من فوقهم فى الدرجة ، ومن هم أسمى منهم فى الرتبة ؛ فانهُ لم يكن للجيش قانون غير ما تمليه الأغراض وتوحيه الأهواء !

ولم يكن أيضاً للخدمة العسكرية حدٌّ تنتهى اليهِ ، ولا مدة معلومة يمضيها الجندى ، ثم يرجع الى أهله وخلانه ؛ بل ما دام فيهِ رمق من الحياة فهو جندى ، يكدّ اكبر الكدّ ، وينصبَ أعظم النَّصَب ، يأكل فى كل يوم قليلاً من العدس ، وينام على قطعة حصير ، حتى صحَّ فى

اعتقاد الأهلين — ولهم العذر — أن موت الولد واتصاله بالجندية بمنزلة سواء، ما دام قد كتب عليهم الحرمان من فلذة اكبادهم الى ما شاء الله

ولذلك كانوا يقيمون الحداد، ويبكون ويولولون يوم يؤذن بالرحيل، ويودع للفراق الطويل

— فقاطعنى صاحبى قائلاً: ولِمَ استمرت هذه العادات الى الآن مع وجود اللوائح العادلة، وحسن معاملة الجند، وتعيين مدة الخدمة العسكرية، مما لا يبقى معهُ سبيل الى هذه الأحزان، واقامة تلك المناحات؟

— فأجبتهُ بأن ذلك حاصل بحكم العادة، وقوّة تأثير الماضى. ثم أخذنا فى أحاديث أخرى، حتى استأذن صاحبنا الغربى فى العودة الى منزله، ومضيت وصاحبى المصرى فى التنزه؛ فقال لى صاحبى: أتظن أن السببَ الوحيدَ لكراهة الفلاحين للخدمة العسكرية هو سوء معاملة الجيش فى الأزمنة الماضية؟ أو ليست هذه الكراهة أمرًا طبيعياً فى الفلاحين على العموم؟

— فأجبتهُ بلَى، أنت مصيبٌ فيما تقول، ولكن هذه الكراهة ليست مَقْصُورَةً على الفلاح المصرى فقط، بل هى مَغْرُوزَةٌ فى نفوس جميع الفلاحين فى المعمور

ذلك لأنهم يعزون الأرض التى نبتوا فيها ، وفيها رزقهم ، واليها مرجعهم ، فلا يفارقونها إلاَّ بالرغم منهم ، مضطرين بحكم الضرورة

وهناك أمرٌ آخر يجب الالتفات اليهِ ، وهو أن الخدمة العسكرية لا تحلو لصاحبها إلاَّ اذا عرف قدرها ، وعلم أنها من أعظم وأقدس الواجبات التى يَفْرضُها الوطنُ على أبنائه

يَطْلُبُهُم الوطن بأن يخاطِروا بحياتهم ، ويَسْفِكُوا دماءهم فى إعزاز كلمتهِ ، وإعلاء شأنه ، وحفظه من صولة العدو وسطوة المعتدى ، وهيهاتَ أن يتم لهم ذلك إلاَّ بالتعليم الذى يُذكِّرن بهِ واجباتهم ، وَيقفُون بهِ على تاريخ بلادهم ، ويحافظون على مجد آبائهم

فعلينا نحنُ المصريين الاهتمام بشأن التعليم ، ونشر لواء المعارف فى جميع القرى والبلدان ، حتى نَعْلَمَ حقَّ العلم مَبْلَغَ واجباتنا نحو وطننا وبلادنا ، والسلام

طنطا أغسطس سنة ١٨٩٤

مدينة مونبلييه

وجمعية الطلبة

لكِ اللهُ ايتها الروضةُ الفيحاء، والغادةُ الهيفاء، فلقد تِهْتِ على غيركِ من المدائن، وتفرَّدْتِ بعلومِك ومدارسك الحفيلَة بالعلوم والآداب، حتى سارت بذكرك الركبان، وطبَّقَتْ شهرتُكَ الآفاق

صفا ماؤكِ، ورق هواءكِ، واعتدل جوُّكِ، ولطفت أخلاق سكانكِ، فجذبت اليك شباب البلاد الأجنبية، فأقبلوا عليكِ من كل ناحية، يَتراضَعُون لبان معارفِكِ، ويهتدون على سنا علومكِ، فلا زلتِ راقيةً فى أوج التقدُّم والعلاء

ذكرتُ أيامَكِ المباركة أيامَ كنت منتظماً فى سلك طلَبَتِك، فحنَّ قلبي لذكراك، واُبتدَرت يدى اليراعَ علَّهُ يصوّر بعض ما يختَلج فى صدرى من الشوق اليكِ، وما طُبعَ فى نفسى من رَوائع آثارِكِ، وهَيْهَات أن يُسعِدَنى فى وصف محاسنكِ، وتِبْيَان مزاياكِ وهُنَّ كِثَارٌ، فهل يذكر مُتَنَزَّهاتِكِ البديعةَ، أو ضواحيكِ العجيبةَ، واذا تحوَّل الى مشارق علومكِ، ومعاهد آدابكِ، فأين هو من القدرة على وصف مدرسة الطب التى ينتسب انشاؤها الى العرب، أو مدرسة الزراعة التى اختالت على أترابها، أو مدرسة الحقوق التى

لو أنفقتُ أيامَ العمر فى الثناء على اساتيذِها، لما وفّيتُهم بعضَ ما يجبُ علىَّ لهم من الحمد

ولا أَنْسَ لا أَنْسَ دُورَ آثارك، ولا مناظر تمثيلكِ التى تملك اللُّبّ، وتنهب القلب، ولا مكاتبكِ التى احتشدت بكرائم الآثار، ورَوائع الافكار، ولا ... ولا ... مما لا يدركه العدّ، ولا يتناوله الاحصاء

ولكننى أرى حقاً علىَّ أن أخصّ جمعية طلاّبك ببعض تفاصيل، عسى أن يكون فيها فائدة لأبناء وطنى الأعزاء، فأقول:

من بضع سنوات لم يكن للطلبة فى مونبلييه محل خاص يجتمعون فيهِ وقت الفراغ من الأعمال، فكانوا يقابلون بعضهم بعضاً فى القهوات على سبيل المصادفة؛ فرأى بعضهم أنهُ لو كان لهم محل خاص بهم يصبح مثابةً لهم فى اجتماعاتهم، لكان خيراً لهم

فاجتمع الرأى على أن يتخذوا لهم ناديًا، وسرعان ما استأجروا لهذا الغرض بيتاً، وتعاونوا على أداء نفقاته، وابتاعوا ما يليق بهِ من الأثاث، وفرضوا رسماً على من يريد الاشتراك معهم، فانضم اليهم عدد عظيم من طلبة المدارس العليا، وثابروا على ذلك زمناً، الى أن رأت البلدية وجوه المنفعة فى هذا النادى، وأنهُ من الواجب عليها مساعدة الطلبة، فابتنت لهم ناديًا فى أحسن بقعة من المدينة، جمعت فيهِ بين أساليب الفخامة والزخرف، وأسلمتهُ لهم فى يوم

مشهود، وقدّرت عليهم فى كل عام قسطاً يؤدونهُ، بحيث لا تمضى بضع سنوات، الاَّ وقد دخل النادى فى ملكهم، فأقبلوا عليهِ أيّما إقبال، وتعهّد كل منهم بدفع ثلاثة فرنكات شهرياً، وسنُّوا الأنحة للعمل بأحكامها، وعهدوا بالادارة الى لجنة ينتخبون أعضاءها مرّة فى كل عام، واشتركوا فى عدّة جرائد علمية، وسياسية، وأدبية، بلغات مختلفة، وأنشأوا مكتبة ضمّنوها كثيرًا من الكتب المفيدة، ومحلاً لتناول القهوة، وأصدروا جريدة دعوها بجريدة جمعية الطلبة بمونبلييه، ترد علينا كل شهر مبادلة لمجلة التقدُّم المصرى، وقد رأينا فى العدد الأخير منها تقريظاً لمجلة التقدُّم على غاية من الرقة والبلاغة، فنشكر لها هذه العواطف الشريفة، ونرجو لها كل فلاح

ولا يخفى ما لهذه الجمعية من المزايا الجليلة، فانها تهيئ للطلبة محلاً يجتمعون فيهِ، فيقابلون اخوانهم، ويمضون أوقاتهم على أحسن حال؛ فمنهم من يأتى لتناول القهوة، أو لعب البليار وما أشبه ذلك؛ ومنهم من يقضى الساعات الطوال فى مطالعة الجرائد والمجلات، أو الكتب النفيسة. وزد على ذلك أنه قد تألفت فى هذه الجمعية عدة لجان، لتُسهّل على الطلبة الحصول على ما يرجونه من أنواع العلوم، وفنون الرياضة: منها لجنة الأدبيات، ولجنة المرافعات التى

تشرفتُ بأن كنت وكيلاً لها، ولجنة الموسيقى، ولجنة تعليم السلاح، ولجنة الفوتغرافيا وغيرها

وفى كل شهر أو شهرين، تعدُّ الجمعية احتفالاً تدعو اليهِ رجال العلم، ووجوه المدنية لحضور تمثيل أو سماع خطابة، أو نحو ذلك، وحينا يكون الدخول مجاناً، وحيناً يكون برسم

وترى الحكومة والأهلين مقبلين على مساعدتها، فقد أهدى رئيس الجمهورية وساماً لرئيسها، فضلاً عن أن نظارة المعارف وبلدية المدينة تتعهدانها كل عام بقدر من النقود، عدا الهدايا التى يُتْحِفُها بها جماعة الموسرين، والمؤلفات التى يهاديها بها جمهور المؤلفين

كل ذلك مما يزيد فى اعتبارها وتقدمها، حتى لقد أربى إيرادها الآن على ٦٠٠ جنيه سنوياً

وفوق ما للجمعية من المنافع الأدبية الجليلة، فانها قد اتفقت مع كثير من المحلات التجارية، على أن تبيعَ أعضاءها ما يحتاجون اليهِ من السلَع، مع التجاوز عن عشرة أو عشرين فى المائة من جملة أثمانها، على حسب الأحوال

وقد حَصلَتْ أيضاً على عدة مزايا ماديَّة أخرى من هذا القبيل، حتى أصبحت الآن وهى من أهم جمعيات الطلبة القائمة فى مدن فرنسا على الإطلاق

فالى مثل هذه الجمعية ألفتِ أنظار طلبة المدارس العليا ، راجياً أن تأخذهم الحمية الوطنية ، فيقدمون على انشاء نادٍ يجتمعون فيهِ ، ويكون لهم بذلك الذكر الجميل ، والشكر الجزيل[1]

القاهرة فى يونيو سنة ١٨٩٤

(١) أنشئ بعد ذلك نادى المدارس العليا بالقاهرة فى سنة ١٩٠٥

obeikandl.com